

الفصل الأول

ازدهار الحياة الثقافية والمؤسسات التعليمية في مدينة غزنة

أولاً: عوامل ازدهار الحياة الثقافية

- الإسلام *
- تشجيع سلاطين الدولة الغزنوية للعلم والعلماء *
- الرحلات العلمية *
- مجالس المناظرات *
- الترجمة *
- منهج البحث العلمي *
- الموسوعية *
- التسامح الديني وحرية الرأي *
- ثروات بلاد الهند *
- أخلاق العلماء *
- حوانيت الوراقين *

ثانياً: المؤسسات التعليمية في مدينة "غزة"

- المنشآت التعليمية *
- طرق التدريس في المؤسسات التعليمية *
- المناهج الدراسية للمؤسسات التعليمية *
- الألقاب والشهادات الأكاديمية *
- هيئة التدريس في المؤسسات التعليمية *

أولاً: عوامل ازدهار الحياة الثقافية

الإسلام

مما لا شك فيه أن الإسلام كان أهم العوامل وراء ازدهار الحياة الثقافية ليس في مدينة "غزة" فحسب بل في كافة مدن العالم الإسلامي وغير الإسلامي، ذلك الدين القيم الذي يشكل طريقة الحياة من مختلف النواحي، فهو طريقة في الحياة تحكم كل أشكال السلوك الإنساني، وهو القوة الثقافية والوجدانية التي ربطت العالم الإسلامي بأجمعه، وهو ذلك الدين العلمي الذي يعتمد على العقل ويقدمه، ويؤاه المكانة السامية التي منحتها إياها الفطرة الإنسانية، فالإسلام هو الطاقة الهائلة التي انطلقت بالمجتمعات الإسلامية إلى آفاق الرقي وفتحت عقول المسلمين على أسرار الكون الفسيح.

فليس هناك من دين كرم العلم ودعا إليه مثلاً فعل الإسلام، فمنذ اللحظات الأولى التي أشرق فيها الإسلام في شبه الجزيرة العربية وهو يحث أتباعه أن يرتادوا رحبات العلم، ليعرفوا أسرار الكون لأن معرفته دليل على وجود الله، لذلك فإن دراسة هذا الكون تؤدي إلى معرفة الطريق القويم للحياة الصحيحة في الدنيا والخالص في الآخرة، كما دفعهم للتجول في ميادينه، والتعمق في تفكيرهم ليضعوا أيديهم على مفاتيح الأشياء، فتخضع لهم وتذعن لأمرهم، ويتمكنوا من تكوين فكرة عميقة وشاملة عن العالم الذي خلقه الله سبحانه وتعالى^١.

وكانت القوة الدافعة لذلك كله مستمدة من كتاب العقل والوجدان معجزة الإسلام الخالدة القرآن الكريم الذي كان عاملاً هاماً في توجيه المسلمين إلى دراسة العلم وإعمال الفكر، وأكبر دليل على ذلك أن أول سورتين نزلتا من الذكر الحكيم تقرران قيمة الكلمة المقروءة والكلمة المكتوبة، ففي سورة العلق تمجيد للكلمة المقروءة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي

^١ - كارم السيد غنيم: ملامح من حضارتنا العلمية وأعلامها المسلمين، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦م، ص ٢٦. منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ترجمة سامي الصقار، الرياض، دار المريخ، ١٩٨١م، ص ٥٠.

خَلَقَ^١». وفي سورة القلم تمجيد للكلمة المكتوبة ﴿نَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ^٢﴾^٣، فلا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه، من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحي بهذه الآيات، إذن فالقرآن بأول آية نزلت منه وبأول قسم فيه يوجه الإنسان بطريق مباشر وبطريق إيجائي إلى الاتجاه نحو المعرفة قراءة وكتابةً وعلمًا^٤. ثم تتابع نزول القرآن ووردت به آيات كثيرة تدعو إلي العلم وتكرم أهله وترفعهم إلى أعلى الدرجات ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ^٥﴾، كما أنه جعل العلم أساس الموازنة بين الناس في الفضل والدرجة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ^٦﴾. وفي الآيات (٣٠: ٣٣) من سورة البقرة في قصة سيدنا آدم والملائكة والتي تبين لنا أن آدم استحق الخلافة في الأرض لما ميزه الله من نعمة العلم والتعلم والنظر والتأمل، وهو ما تميز به عن الملائكة، لذا أمرهم الله بالسجود لآدم، فجعل بذلك منزلة علمه فوق منزلة تسبيح الملائكة وتقديسهم له، وهو إكبار للعلم لا يدانيه إكبار^٧.

وتتوالى الآيات الكريمة التي تحث علي العلم أمرة به مبينة آدابه وشروط النبوغ فيه، ومشيدة بالعلماء ومكانتهم، ومن ذلك المنطلق حث القرآن الكريم المؤمنين علي النظر فيما

١ - العلق: (١)

٢ - القلم: (١)

٣ - أحمد جاب الله شلبي: التعليم والتربية عند المسلمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، ص ٤٨.

٤ - عبد الحليم محمود: موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة، ط ٢، القاهرة، دار الرشاد، ٢٠٠٣م، ص ٨١، ٨٢.

Mozammel Haque: Islamic Education, Quranic Schools (Madrassahs) and Terrorism, The Islamic quarterly, A review of Islamic Culture, vol. ٤٩, ٢٠٠٥, pp ٨٨, ٨٩.

٥ - المجادلة: (١١)

٦ - الزمر: (٩)

٧ - شوقي ضيف: عالمية الإسلام، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص ٥٤.

خلق الله وفي سائر ملكوت السماوات والأرض، مما أتى مفصلاً بجميع أنواعه وأقسامه في كثير من الآيات القرآنية المتفرقة، وهي تشير بوضوح إلى الحقائق والمعارف الإنسانية، الأمر الذي من أجله انطلق المسلمون ينقبون ويدرسون ويبحثون في مجالات العلم المتعددة، فنبغوا فيها نبوغاً شهدت به الدنيا كلها، وكانوا من الرواد الأوائل في تلك المجالات، أساتذةً للذين تتلمذوا عليهم وعلي تراثهم الذي تركوه^١.

هذا وقد ترك القرآن الكريم آثاراً عميقة في الفكر الإنساني تجعل المؤمن يرى آيات الله في كل شيء، تجعله يبصر أبعاد الألوهية في آفاق الكون، والسنن العامة التي تحكمه، فأيات الله في صحائف الكون تتلاقى مع آيات الله في صحائف الوحي تلاقيًا يجعل النظرة إلى الكون أسمى، وهذا العقل المؤمن لا يعجز عن تحليل الروابط التي تصل الأشياء بعضها ببعض والتي تقود إلى القوانين العلمية الشائعة في الوجود، والدين يضيف على هذه القوانين معنى أشرف^٢.

أما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فزاخرة بالنصوص التي تأمر بالعلم وتحض عليه وتُعلي من قدره ومكانة أهله، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم (العلماء ورثة الأنبياء)^٣، ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الورثة لتلك الرتبة^٤، كذلك فضل أفضل المرسلين العالم علي العابد في قوله صلى الله عليه وسلم (فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي)^٥. وهناك العديد من الأحاديث الأخرى التي وردت لتشيد بالعلماء وتفضلهم على سائر البشر، وتوضح مكانتهم العالية ومنزلتهم

١ - برويز أمير بيود: الإسلام والعلم، ترجمة محمود خيال، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م، ص ١٩١.

٢ - محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين، ط ٧، نهضة مصر، ٢٠٠٥م، ص ٤٨.

٣ - البخاري: صحيح البخاري، ج ١، مكتبة دار الشعب، ١٩٦٨م، ص ٢٦.

٤ - الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ١، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١٣.

٥ - المصدر السابق والجزء، ص ١٤.

الرفيعة التي نالوها بشرف علمهم، وتحث علي طلب العلم أينما وجد، مهما كلف ذلك الإنسان من صعب.

لم تكتف الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بالحديث عن العلم والترغيب في طلبه، وإنما قدمت هي نفسها أفانين من الفكر كانت مجالاً للدراسة والبحث، فخلقت بذلك أول ينبوع من ينابيع الفكر الإسلامي^١. لذلك التمس المسلمون العلم عند كل من وُجد عنده علم، ولما تسلموه لم يخضعوا له بل أخضعوه لإطار التوحيد وطريقة التجربة وحرروه من زيف الوثنية، وحللوه وأعادوا صياغته، فأصبح في ضوء الإسلام خلقاً جديداً مختلفاً كل الاختلاف. لقد كان قوله تعالى ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^٢ هو نقطة البدء في العلم التجريبي، ومن ثم أقاموا ذلك البناء الشامخ الذي حقق للحضارة الإسلامية والإنسانية الوصول إلى ما وصلت إليه الآن^٣. ويكفي أن نذكر أنه وصل إلينا من التراث العلمي الإسلامي آلاف من المجلدات نفخر بها في كل علم، كما نفخر بواضعيها من علمائنا الأجلاء السابقين، ولن أتعرض هنا بالحديث عن علماء مدينة غزة الأفاضل مما سيأتي تفصيله في دراسة كل علم، وإنما هذه نظرة عامة عن الإسلام والعلم وكيف أذكى الإسلام جذوة العلم عند المسلمين، وكيف دفعهم بقوة إلى التوجه حتى امتلأت الأراضى الإسلامية نوراً وضياءً وعلومًا دينية ولغوية وكيميائية ورياضية وغيرها، تلك كانت ثمرة الدعوة الإسلامية التي بلغت في الإشادة بالعلم الذروة.

بهذه الآيات من كلام رب العالمين ومن حديث سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، يتضح أن الإسلام دين أساسه الإيثار وجوهره العلم، وأن الحقيقة التي لا خفاء فيها أن

^١ - رشيد حميد الجميلي: حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، ليبيا، ١٩٨٢م، ص ٥٤.

^٢ - يونس: (١٠١)

^٣ - سمية بنت حسن إبراهيم: منزلة العلم في الإسلام، بحث مقدم إلى الندوة الكبرى بمناسبة اختيار مكة المكرمة

الدين الإسلامي مبني على العلم والفكر، وأن ما حققه المسلمون من إنجازات علمية في عصر الإسلام الذهبي تثبت أن الإسلام يُدعم العلم تمامًا، كما أن السعي وراء العلم يعتبر من الواجبات الدينية بالإضافة إلى كونه حاجة عملية^١.

تشجيع سلاطين الدولة الغزنوية للعلم والعلماء

مع الأهمية القصوى للعلم ومع الضرورة الملحة لوجود العلوم في الأمة الإسلامية كان لابد أن يكون هناك نوعٌ من التوازن الذي يحقق هذه الأهمية وتلك الضرورة، وهذا التوازن لا يري طبيعيًا وإنما يوجد له ما يرجح كفته وهو التشجيع بشتي صوره سواء بالوعظ والإرشاد والترغيب، أو من يلي أمر العلم والتعليم، أو من أولي الأمر وهم السلاطين والأمراء، وهذا التشجيع الرسمي هو الذي يحقق التوازن ويضمن بقاء جذوة العلم بشتي فروعه متقدمة مستمرة، ولولا تلك الرعاية ما ظهر العصر الذهبي للحضارة الإسلامية.

ولقد كان للخلفاء والسلاطين الذين تولوا أمر الأمة الإسلامية في كل زمان ومكان دور في تشجيع العلم والاهتمام بالعلماء، وكان باعثهم إلى ذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^٢، ففي هذه الآية الكريمة قرن الله العلماء به وبملائكته في شهادة التوحيد، كما كان شعارهم في ذلك أيضًا الحديث النبوي القائل (الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ممن سمعها، ولا يبالي

^١ - كارم السيد غنيم: ملامح من حضارتنا العلمية، ص ٢٦. برويز أمير بهائي: الإسلام والعلم، ص ١٩١.

^٢ - آل عمران: (١٨)

من أى وعاء خرجت)¹، ولإدراكهم لمقولة أبى الأسود الدؤلى: (ليس شئ أعز من العلم، الملوك حكام علي الناس، والعلماء حكام علي الملوك)².

كان للوسط الثقافي الذي عاش فيه العلماء في بلاط سلاطين "غزنة" دوره الكبير في الازدهار الذي شهدته المدينة في عصرهم، حيث قامت الدولة الغزنوية علي دعامتين أولهما: الاهتمام بالفتوحات ونشر الإسلام، وثانيهما: الاهتمام بالعلوم والآداب ورعاية الشعراء والعلماء والكتاب³. فهذا السلطان "محمود الغزنوي" (٤٢١: ٣٨٨هـ/ ١٠٣٠: ٩٩٨م) الذي استطاع . متأثراً بروح عصره ومستعيناً بالثروات الضخمة التي آلت إليه من فتوحاته في بلاد الهند . أن يجعل من مدينة "غزنة" عاصمة حضارية تراث ما تركته المراكز الثقافية الأخرى، وتشد إليها العلماء والشعراء والأدباء⁴.

كان السلطان "محمود الغزنوي" من السلاطين ذوى الثقافة العالية وخاصةً في العلوم الدينية⁵، كما أنه سار علي أسلوب العصر في تزيين مملكته بالعلماء والأدباء، لذلك اجتذب

¹- ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، تحقيق عبد الأمير شمس الدين، ط ٢، بيروت، دار اقرأ، ١٩٨٦م، ص ١١٩.

²- الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ١، ص ١٥. طاش كبري زاده: مفتاح السعادة، تحقيق كامل البكري وعبد الوهاب أبو النور، ج ١، الدكن، مطبعة دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٨هـ، ص ٨.

³- استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٣٠٩. حربي أمين سليمان: التشرافارسي والتأثير العربي في العصرين الساماني والغزنوي، ص ٤٤.

Lapidus: A History of Islamic Societies, U.S.A, ٢٠٠٢, p1١٦.

⁴- بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسية ومظاهرها الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي، ص ٣٥٤. محمد جمال الدين سرور: انقسام الدولة الإسلامية إلي دول مستقلة بالشرق، دار الفكر العربي، ١٩٦١م، ص ٣٦.

Bosworth: The Development of Persian Culture under the Early Ghaznavids , Iran Journal of the British Institute of Persian Studies, vol.٦, ١٩٦٨, p٣٨.

Lane Poole: Mediaeval India Under Mohammedan Rule (A.D.٧١٢-١٧٦٤), p٢٩.

⁵- العتبي: تاريخ اليمينى، ج ٢، ص ٢٣٩.

Arthur Pope: Persian Architecture, Japan, ١٩٦٩, p٤٨.

إلى غزنة بشتي الوسائل والطرق أعظم الشعراء والعلماء الذين عرفتهم تلك المنطقة، فعندما علم أن في مجلس أبي العباس "مأمون بن مأمون"^١ جماعة من رجال العلم والفلسفة من أهمهم "ابن سينا"، و"البيروني" و"ابن الخمار" و"أبو نصر منصور بن عراق"^٢ كتب إليه أن يرسلهم إلى مجلسه حتى يتشرف بهم ويستفيد من علمهم، فجمعهم "أبو العباس" وقرأ عليهم كتاب السلطان "محمود" فأبى "ابن سينا" وقبل "البيروني" و"ابن الخمار" و"أبو نصر العراق"^٣.

ومن دلائل إجلال "السلطان محمود" للعلماء إغداقه العطاء عليهم، فكان ينفق عليهم بسخاء، وإذا كان قد جفا "الفردوسي" صاحب الشاهنامه العظيم، فقد أغدق المال على شعراء آخرين مثل الشاعر الفرخى الذى ترك موطنه والتحق بخدمة السلطان محمود، وبلغ من ثرائه أنه كان يمشى فى ركابه عشرون غلاماً^٥. وأيضاً الشاعر العنصرى الذى أغرقه السلطان "محمود" بعطاياه حتى قال عنه الخاقاني الشاعر ما ترجمته:-

سمعت أن العنصرى قد اتخذ موقدا من الفضة

^١ - أبو العباس مأمون بن مأمون: آخر حكام الدولة المأمونية التى حكمت خوارزم والى انتهت بوفاته، كانت تربطه بالسلطان محمود علاقة ود ومحبة، كان رجلاً فاضلاً محباً للعلم والعلماء. البيهقى: تاريخ البيهقى، ص ٧٣٤.

^٢ - سيأتى الحديث عنهم مفصلاً فى معرض الحديث عن العلوم التطبيقية فى الفصل الرابع.

^٣ - أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ١، ص ٢٨٦. إدوارد براون: تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، ترجمة إبراهيم أمين الشواربى، مصر، مطبعة السعادة، ١٩٥٤م، ص ١١١. محمد جمال الدين سرور: المرجع نفسه، ص ٣٧.

Bosworth: Op,cit, p٣٨.

^٤ -Arthur Pope: Op,cit ,p٤٨.

Claud Field: Persian Literature , London ,١٩١٢ ,p٩٥.

^٥ - محمد الرفاعى: الخلافة العباسية، ص ٢٠٦. استاد خليلي: المرجع نفسه، ص ١٢٢.

واقعتي من الذهب

أدوات خـوانه^١

وقد بلغ ما ينفقه السلطان "محمود" على أهل العلم في العام الواحد ما يزيد على أربعمئة ألف دينار^٢. ولم يكن السلطان "محمود" سخيا في عطائه لرجال العلم فحسب بل كان أكثر من ذلك سخاءً في هباته للمكتبات والمساجد العديدة التي شيدها في مدينة "غزة"^٣. كل ذلك كان له أبلغ الأثر في ازدهار الثقافة، ذلك لأن الثقافة لها تأثير كبير بالظروف الاقتصادية، فكيف يفكر الإنسان إذا فقد الاستقرار والأمن والكفاية المعاشية؟ وفي ذلك يقول الإمام الشافعي: "لا تستشر من ليس في بيته دقيق"^٤.

بالإضافة إلى ما سبق كان السلطان "محمود" يستعمل العلماء في المراسلات السياسية بينه وبين حكام الدول الإسلامية^٥، كما استعان بالعلماء والأدباء في مناصب الدولة المهمة، فعين الأديب "أحمد بن حسن الميمندى"^٦ في ديوان الرسائل^١. ومن الأدلة على احترامه

^١ - رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ترجمة محمد هنداوى، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٤٧م، ص ٤١.

^٢ - المستوفي القزوينى: تاريخ كزيدة، ص ٣٣. استاد خليل: سلطنت غزنويان، ص ١٢٦.

^٣ - محمد حبيب أحمد: بين الهند والباكستان، ص ٤٦. (يحكي أن السلطان محمود كان في شك دائم بالنسبة للحديث النبوي "العلماء ورثة الأنبياء"، وهل هناك يوم للقيامة؟ وهل نسبه يرجع إلي سبكتكين أم لا؟ وفي أحد الليالي أثناء اختلاعه بنفسه حمل إليه أحد خدمه شمعدان من الذهب، وكان هناك طالب علم يتردد علي مدرسة، وبسبب الظلام كان يذهب إلي دكان ليستعين بضوء مصباحه عند مواجهة أية صعوبة في القراءة، فرق قلب السلطان له ومنحه الشمعة والشمعدان، وفي الليلة نفسها رأي في المنام المصطفى صلى الله عليه وسلم وقال له: يا ابن سبكتكين أعزك الله في الدارين كما أعززت وارثي، فحلت بذلك كل مشكلاته الثلاثة). المستوفي القزويني: المصدر نفسه، ص ٤٣.

^٤ - عبد الستار أبو غدة: رب زدنى علماً "منهجية العلم في الإسلام"، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣م، ص ٩٩.

^٥ - ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٢٠٥.

^٦ . الميمندى: هو أحمد بن حسن (ت ٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م) كان يلقب بشمس الكفاءة، اشتهر بفصاحته وعلو همته وحسن سياسته، بدأ حياته في أحضان الدولة الغزنوية، وكان زميل دراسة للسلطان "محمود"، تولى

وإجلاله للعلماء أنه إذا دخل عليه أحد العلماء يقوم لمقابلته، كما فعل مع الواعظ والعلامة المحدث "أبو منصور الأزدي"^٢.

يتضح لنا مما سبق أن السلطان "محمود الغزنوي" كان من أعظم الشخصيات التي عرفها القرنين الرابع والخامس الهجريين، ذلك لأن العظمة التي وطدها في مجتمعه بقيت ذات أثر واضح في حياة المسلمين، والمد الحضاري والثقافي الذي غمر به مملكته كان خلافاً، فغزنة أصبحت في عهده دار مملكة الشرق كما قال عنها "البيروني"^٣، حتى عجزت معظم العواصم العلمية عن اللحاق بها كمجمع علمي^٤.

وعلى نفس النهج سار كل من "محمد" و "مسعود" (٤٢١: ٤٣٢ هـ / ١٠٣٠: ١٠٤٠ م) ابنى السلطان "محمود" في رعاية العلوم والآداب، فلم يبخل على العلماء والشعراء والمفكرين بالعطايا والهبات. وبالإضافة إلى التشجيع المادي كان هناك نوع من التشجيع المعنوي والوجداني حيث كانت مجالس العلماء ومناظراتهم لا تنعقد إلا في وجود السلاطين والأمراء. وإلى جانب تلك المجالس كانت تُعقد المسامرات، فكثيراً من

عدة مناصب في عهده منها ديوان الرسائل، وتولي الوزارة لمدة ثمانية عشر عاماً، ولكنه تعرض لدسائس كبار رجال الدولة فتغير عليه السلطان "محمود" وعزله ثم سجنه في إحدى قلاع الهند. خواندمير: دستور الوزراء، ترجمة حربى أمين سليمان، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٠ م، ص ٢٣٦. البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ١٥٨. استاد خليلي: المرجع نفسه، ص ١٧٢، ٢٨٤. عبد الناصر إبراهيم: شمس الكفاءة أحمد بن حسن الميمندى، مجلة المؤرخ المصرى، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عدد ٣٢، يناير ٢٠٠٨ م، ص ٦٣: ٨٨. فتحي عبد الفتاح أبو يوسف: النزعات السياسية في الدولة الغزنوية مع بداية حكم السلطان مسعود الغزنوي، مجلة الدراسات الشرقية، العدد ٤، ١٩٨٦ م، ص ١٥٦.

^١ - العتبي: تاريخ اليميني، ج ٢، ص ١٧٠.

^٢ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٧، ص ٢٧٤. عفاف السيد زيدان: بين أمير المؤمنين هارون الرشيد والسلطان محمود الغزنوي، ص ١٤. الشكل رقم (١).

^٣ - علي الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٢٩.

G. H. Rawlinson: India, A Short Cultural History, p ٢٠٩.

^٤ - أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، ص ٢٩٠.

السلطين كانوا يسهرون الليالى إلى جانب عالم يطارحهم في الأشعار والآداب أو في المسائل العلمية والفقهية، فيذكر البيهقي عن أستاذه "عبد الرحمن القوال" أن الأمير محمد كان يلح عليه في أن يكرر هذين البيتين من الشعر:

وليس غدركم بدعاً ولا عجباً لكن وفاءكم من أبدع البدع
ما الشأن في غدركم الشأن في طمعي وباعتدادي بقول الزور والخدع^١

كما كان يقرأ المعلقات السبع و"قفا نبك". وكان "أبو بكر القهستاني" والذي يعد من عظماء العصر مريباً للأمير "محمد" وأستاذه ونديمه في نفس الوقت^٢.

أما السلطان "مسعود بن محمود" فكان زائداً في الكرم^٣، يجالس العلماء والفضلاء ويصلهم بجميع أنواع الإحسان والإكرام حتي صنف العلماء كتبهم باسمه، فهذا هو البيروني الذي كتب باسمه كتابيه الشهيرين "القانون المسعودي" و"الزيح المسعودي"، وأهداهما إليه^٤. كما كان كثير الإغداق علي الشعراء^٥، فيروي أنه في أحد مجالسه أعطى الشاعرين الكبيرين "العنصري" ألف دينار، و"الزبني العلوي" خمسين ألف درهم، وأمر للشعراء الأقل شأنًا بعشرين ألف درهم، وللمطربين والمضحكين بثلاثين ألف درهم^٦، كما أعطى شاعر آخر بكل بيت ألف درهم^٧.

^١ - البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٧٦.

^٢ - عفاف السيد زيدان: بين أمير المؤمنين هارون الرشيد والسلطان محمود الغزنوي، ص ١٧.

^٣ - البيهقي: المصدر نفسه، ص ١٣٣.

^٤ - ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٤٥. ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ج ٣، ط ٤، بيروت، دار الثقافة،

١٩٨٧م، ص ٣٠. البيهقي: المصدر نفسه، ص ١٣٧، ٣٠٢. محمد الرفاعي: الخلافة العباسية، ص ٢٠١.

^٥ - استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٢٢٨.

^٦ - البيهقي: المصدر نفسه، ص ٣٠٢. محمد الرفاعي: المرجع نفسه والصفحة.

^٧ - ابن الأثير: المصدر نفسه والجزء، ص ٢٤٥. النويري: نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٧٣.

وكان السلاطين بالإضافة إلى تلك المكافآت السخية يجزلون العطاء للعلماء في المناسبات المختلفة، فإذا رأوا نبوغاً أو براعة في التأليف من أحد العلماء كان له جزاؤه بالإضافة إلى التشجيع، فقد أرسل السلطان مسعود إلى "اليروني" ثلاثة جمال محملة بالدراهم الفضية^١، مكافأة له على كتابة "القانون المسعودي"، ولكنه اعتذر عن عدم قبول الهدية بقوله أنه "إنما يخدم العلم للعلم وليس للمال"^٢. فكان رفضه بوازع من الزهد، ولكي ينأى بنفسه عن المال الذي يجعله موضع شبهة في أعين أتباعه المخلصين الذين يكبرونه من أن يصبح تابع للسلطة الحاكمة.

كذلك حرص السلطان "مسعود" على استقدام الشاعر "منوجهري" ليشترك في الحركة الشعرية المزدهرة في بلاطه، وذلك بتعصيد من وزيره "أحمد بن عبد الصمد" نصير الشعراء والعلماء، فذهب "منوجهري" إليه شأنه في ذلك شأن غيره من شعراء عصره، وقضى أحسن فترات حياته وأكثرها خصباً وإنتاجاً، وقد ساعده على ذلك رعاية السلطان الوافرة له^٣.

استمر حرص السلطان "مسعود" على تشجيع العلماء حتي في أوقات الأزمات الاقتصادية وذلك بتحقيق الكفاية وتفرغ البال للعلم فقط. فقد أصاب مدينة "غزنة" سنة (٤٢١هـ/١٠٣٠م) سيل عظيم أهلك الزرع والأشجار، مما أدى إلى نقص في الموارد الاقتصادية، فتصدق السلطان "مسعود" بمليون درهم ومنح العطايا للفقهاء والعلماء^٤.

^١ - من الملاحظ كثرة مبالغات المصادر العربية في أرقام المكافآت، وهذا وإن دل فإنها يدل على شدة كرم السلاطين الغزنويين مع علمائهم وشعرائهم.

^٢ - أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، ١٩٨٣م، ص ٣٤.

^٣ - على الشاذلي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ١٨٥، ١٨٦.

^٤ - ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ١٩٥. ميرخواند: روضة الصفاء، ص ١٦٤. فتحى عبد الفتاح أبو سيف: النزاعات السياسية في الدولة الغزنوية من بداية حكم السلطان مسعود الغزنوي، ص ١٤٠.

كما تم بأمرة بناء العديد من دور العلم من المساجد والمدارس وغيرها لتشجيع العلماء على العطاء المستمر، وبذلك جعل المناخ مهياً لازدهار العلم وإبداع العلماء^١.

أما السلطان "إبراهيم بن مسعود" (٤٥١هـ: ٤٩٢هـ / ١٠٥٩م: ١٠٩٨م) الذي استمر حكمه اثنين و أربعين عاماً فكان حريصاً على تشجيع العلماء مهتماً بالعمارة والبناء، فقليل أنه لا يبني لنفسه منزلاً حتي يبني لله مسجداً^٢. ووصفه "البيهقي" بالسلطان العالم "أبي المظفر إبراهيم"^٣، وكان يكتب المصحف الشريف بخطه كل عام ويرسله إلي مكة المكرمة^٤، وبعث إلي أبي "القاسم عبد الرحمن بن أبي الصادق النيسابوري" الذي كان له مرتبة علمية عظيمة وخاصة في الطب حتي لقب ببقرات الثاني ملاً كثيراً، ودعاه إلي الحضور إليه فقال: "السلطان يطلبني لعلمي، فأنفق على ماله لأنفقن عليه علمي، وهذا بيع وشراء، والعلم لا يباع ولا يشتري، وما لي حاجة إلي قبول تلك الأموال"^٥. كذلك حرص السلطان إبراهيم علي تزويج جميع بناته من العلماء المشاهير، فتزوجت إحداهن من الجد الثالث لمنهاج سراج، وأنجبا إبراهيم والد العالم منهاج سراج والد العلامة سراج الدين^٦.

أما السلطان "بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم" (٥١٢: ٥٤٧هـ / ١١١٨: ١١٥٢م) فكان محباً للعلماء مكرماً لهم باذلاً لهم الأموال الكثيرة^٧، اجتمعت لديه صفوة ممتازة منهم

^١ - ميرخواند: المصدر نفسه والصفحة.

^٢ - الجوزي: المنتظم، ج ٥، ص ١٠٩. محمد الرفاعي: الخلافة العباسية، ص ٢٠١.

^٣ - البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٤٠٤.

^٤ - بداوني: منتخب التواريخ، ج ١، ص ٣٢. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٣، ص ٦. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٢٥٠.

Bosworth: The Later Ghaznavids, p٧٤.

^٥ - الشهرزوري: تاريخ الحكماء، تحقيق عبد الكريم أبو شويرب، باريس، مكتبة بيبليون، (د.ت)، ص ٣٢١. البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد علي، دمشق، مطبعة الترقى، ١٩٤٦م، ص ١١٥.

^٦ - جوزجاني: طبقات ناصري، ج ١، ص ٢٣٩. استاد خليلي: المرجع نفسه، ص ٢٥١.

^٧ - ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣٩١.

القاضي محمد بن عبد الحميد إسحاق، وبرهان الدين عبد الرشيد، وعبد الرحمن البستي، ومحمد النيسابوري، وعبد الرحيم الإسكافي، وعبد الحميد الزاهدي، وكان دائم الجلوس مع العلماء والفضلاء والحكماء^١، كما تُرجم له كتاب كليلة ودمنة ونسبه المترجم إلى اسم السلطان "كليلة ودمنة بهرامشاهی"^٢.

يتضح مما سبق أن رعاية سلاطين الدولة الغزنوية للعلم والعلماء جعل من مدينة "غزة" جامعة عظمي تألفت فيها مختلف المعارف، وكانت ملتقي لأكبر علماء ذلك العصر بفضل التشجيع والتكريم والرعاية للعلم وأهله، فهذا العالم الشهير "البيروني" يشير في إحدى قصائده إلى الذين أكرموا لعلمه بقوله: .

مضي أكثر الأيام في ظل نعمة علي	رتب فيها علوت كراسيا
فأل عراقٍ قد غذوني بدرهم	ومنصور منهم قد تولي غراسيا
وشمس المعالي كان يرتاد خدمتي	علي نفرة مني وقد كان قاسياً
وأولاد مأمون ومنهم عليهم	تبدي بصنع صار للحال آسيا
وآخرهم مأمون رفه حالتي	ونوه باسمي ثم رأس راسياً
ولم ينقبض محمود عني بنعمة	فأغني واقني مغضياً عني مكاسياً
أبو الفتح في دنياي مالك ربقتي	فهاه بذكراه الحميدة كاسيا
فلا زال للدنيا والدين عامرا	ولا زال فيها للفؤاة مواسياً ^٣

وهذا "جوستاف لوبون" يقول: "ولقد سما العصر العظيم الزاهر للحضارة الإسلامية بالعلماء واستطاع أن يقيم للعالم مثلاً أعلى سامياً حقاً"^٤. هذا هو توقير العلماء، فهل بقي

١- علي الشابي: المرجع نفسه، ص ٣٦١.

٢- ميرخواند: المصدر نفسه، ص ١٧١. الهروي: طبقات أكبرى، ج ١، ص ٤٦.

٣- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ١٧، ص ١٨٦. أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ١، ص ٢٨٧.

٤- جوستاف لوبون: حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٧م، ص ٣٠٩.

من توقير العلم والعلماء شيء؟! فقد تمتع العلماء في المجتمع الإسلامي دائماً حتى في فترات التدهور بأرفع منزلة، وكان من واجب الحكام والرعية صون هذه المنزلة، والتاريخ الإسلامي ملئ بالقصص التي توضح بجلاء التبجيل الذي كان يحظى به طالبو العلم، وقد كتب العلماء إدراكاً منهم لمكانتهم الرفيعة مؤلفات كثيرة تتناول قواعد الأدب والسلوك التي كان على المعلمين والمتعلمين على السواء مراعاتها.

خلاصة الأمر أن التشجيع الرسمي للعلماء كان وراء تلك النهضة العلمية التي قاومت عناصر الفناء، والتي وجدنا فيها سبلاً من التراث العلمي الذي لو لم يكن هناك جهودٌ فردية ورسمية لحفظه وصيانتَه لقصت عليه عوادي الزمن فيما قضت من عمران ومباني وأزمان، ولكن بالرعاية والاهتمام بقيت ثقافتنا وحضارتنا الإسلامية والتي نقطف من ثمارها الآن، وندعو الله أن تدوم تلك الحضارة وتتناقلها الأجيال لأنها حضارة القرآن.

الرحلات العلمية

تعتبر الرحلات العلمية من أهم العوامل التي ساعدت على ازدهار الحياة الثقافية في مدينة "غزة"، فقد ساعدت مكانة "غزة" العلمية بين المراكز العلمية الأخرى في العالم الإسلامي، والرحلة منها وإليها على اتباع سياسة الأخذ والعطاء في المجالات الفكرية دون أن يكون هناك إعاقات لتبادل الفكر والعلم خاصة في المجال السياسي أو المجال المذهبي.

إن للرحلة في طلب العلم أهمية كبرى في حياة العلماء والطلاب، لذلك جعلها "ابن خلدون" ضرورة يجب أن يسعى إليها العلماء فيقول: "فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال"^١. وفي هذا الصدد قال أبو

^١ - ابن خلدون: المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ج ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م، ص ١١٢٠.

أيوب الأنصاري: "من أراد أن يكثر علمه، فليجالس غير عشيرته"^١. كذلك قال أحد الشعراء في أهمية الرحلة العلمية:

من لم يشافه عالماً بأصوله فيقينه في المشكلات ظنون^٢

كما دعا القرآن الكريم. كلمة الله إلى البشر كافة. في مواضع عديدة إلى السفر والترحال، فنذكر من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^٣ ففيها استنفار إلهي عظيم لتعلم شريعة الإسلام وعلومه أينما وجدت ثم نشرها في الأمة.

ومن قصة سيدنا "موسي" عليه السلام والخضر يتضح لنا استحباب الرحلة في طلب العلم، واستزادة العالم من العلم مهما لاقى من متاعب وصعاب، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم علي لسان سيدنا "موسي" عليه السلام ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾^٤. فالسفر في طلب العلم لا يخلو من النصب، وهو أمر لا مفر منه، لأن طلب العلم أمر عظيم، وأن سيدنا "موسي" عليه السلام مع كونه نبياً اختار هذا النصب في طلب العلم^٥. وأياً ما كان من متاعب الرحلة فإنها في أغلب الأحيان سلوك إنساني حضاري يؤتى ثماره النافعة على الفرد وعلى الجماعة، فليس الإنسان بعد الرحلة هو نفسه قبلها^٦.

اهتم العلماء في مختلف أنحاء العالم الإسلامي بالرحيل إلى المدن الكبرى للاتصال بالعلماء المشهورين للاستفادة من علمهم، والسبب في ذلك "أن الناس يأخذون معارفهم

^١ - القرطبي: بهجة المجالس وأنس المجالس وشخذ الذاهن والهاجس، تحقيق محمد مرسى الخولي، ج ١،

بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨١م، ص ٤٣.

^٢ - سمية بنت حسن إبراهيم: منزلة العلم في الإسلام، ص ١٠٥.

^٣ - التوبة: (١٢٢)

^٤ - الكهف: (٦٢). النسائي: كتاب العلم، تحقيق فاروق حمادة، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣م، ص ٧٣.

^٥ - طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة، ج ١، ص ٢٠.

^٦ - فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ط ٢، القاهرة، الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٢م، ص ٢١.

تارة علماً وتعليماً وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقياً بالمباشرة، فعلي قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها"^١. فأصبح من عادة طالبي العلم أن يسبحوا في البلاد للقاء الشيوخ ومجالسة العلماء والاطلاع علي الكتب، ومنهم من إذا نال قسطاً وافراً من العلم فإنه يطوف بالأقطار الإسلامية يعلم ويدعو تلبية للدعوة الكريمة "خيركم من تعلم العلم وتعلمه"^٢. وذلك حرصاً منهم علي الأخذ مباشرة من كبار الشيوخ، فكانت القيمة العلمية للطالب تتناسب مع عدد الشيوخ الذين تلقي عنهم العلم^٣، لذلك لم يكتف طالب العلم بقراءة مصنفات العلماء وحدها، وإنما وجب عليه قراءتها عليهم، أو سماعها منهم حتى يعتبر ثقة في مادته وحجة في علمه^٤.

كان لأبناء مدينة "غزة" من طلاب العلم دور بارز في هذا المجال، فلم نجد عالماً منهم لم يرحل في طلب العلم من مراكز العلم المنتشرة في ذلك الوقت، ومما يسر تلك الرحلات خضوع العالم الإسلامي برقعته الواسعة لدولة واحدة، فكل الأقاليم الإسلامية كونت في جملتها بلاد الإسلام، وقامت بين الناس وحدة إسلامية شاملة لا تتقيد بالحدود السياسية، فكل مسلم كان يستطيع السفر بغير حرج داخل حدود المناطق كلها^٥. وعندما ذهبت الوحدة السياسية بقيت وحدة الدين ووحدة اللغة وهاتان ربطتا طلاب العلم فاحتفظوا بالصلة فيما بينهم، بل لعل الرحلة كانت أقوى في عهد التفرق السياسي منها قبل

^١ - ابن خلدون: المصدر نفسه والجزء والصفحة.

^٢ - فؤاد قنديل: المرجع نفسه، ص ٣٢.

^٣ - أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، كشاف للطباعة، ١٩٥٤م، ص ٣١٠. عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ط ٥، دار المعارف، ١٩٨٠م، ص ٦٦.

^٤ - حسن جبر: أسس الحضارة العربية الإسلامية، دار الكتاب الحديث، الكويت، ١٩٩٨م، ص ٢٨٢. محمود عرفة وحسن عبد الحميد: معالم تاريخ الحضارة العربية، الكويت، ١٩٩٣م، ص ٢٨٢.

^٥ - علي حبيبة: العباسيون في التاريخ، القاهرة، مطبعة الإرشاد، ١٩٨٠م، ص ٢٦٤.

ذلك، لاعتقاد العالم الإسلامي درجة من المعيشة ونوعاً من الحياة ولوناً من التفكير تحتم علي أفراده الاتصال والتبادل الفكري والأدبي^١.

وغالبا ما كان العلماء يبدأون رحلتهم العلمية بالتوجه إلى "مكة" للحج. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن هؤلاء العلماء يودون تزكية أنفسهم باستكمال فرائض الدين وبمجاورة المسجد الحرام، فضلاً عن اختلافهم إلى أئمة العلم الذين يعيشون مجاورين له^٢. ثم يطوفون بعد ذلك بأشهر المراكز العلمية في ذلك الوقت، وحركة التنقل هذه حفزت الكثير من أهل العلم على تدوين مشاهداتهم^٣.

هناك سبب آخر شجع هؤلاء العلماء للقيام بتلك الرحلات، وهو الحفاوة والتكريم الذي ينعمون به من أعيان البلد الذي يحطون الرحال فيه، فيعقدون فيه مجالس الوعظ والتذكير والمناظرة، يضاف إلى ذلك أنهم قد يتقلدون الوظائف في هذه الأماكن كالقضاء والتدريس والخطابة على اعتبار أن جميع هذه البلاد بلاد إسلامية، وإن تعددت حكوماتها واختلف حكامها^٤.

^١ - الجويني: البرهان في أصول الفقه، تحقيق عبد العظيم الديب، ج ١، ط ٢، القاهرة، دار الأنصار، ١٩٧٩م، ص ٣٥. نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، ط ٣، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م، ص ١٥. منيرة ناجي سالم: تاج الإسلام أبو سعد السمعاني وكتابه التعبير في المعجم الكبير، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٤٣١.

^٢ - عبد الباري محمد الطاهر: خراسان وما وراء النهر بلاد أضاءت العلم الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ١٤٤.

^٣ - عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق عدنان محمد الطعمة، ج ٢، طهران، مؤسسة نشر التراث المخطوط، ١٩٩٩م، ص ١٣٠. حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٨٩م، ص ٨٩. محمد الخضر حسين: أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٤م، ص ٣١٨.

^٤ - منيرة ناجي سالم: المرجع نفسه والصفحة.

وعلي ذلك فكل مصر من أمصار العالم الإسلامي يؤلف مركزاً للإرسال والاستقبال في ذات الوقت، فهو يعطي جماهير الطلبة التي تأتيه من الأمصار الأخرى مجموع العلم الذي اختزنه، ويمد حصيلته باستمرار عن طريق الطلاب الذين يرسلهم لتحصيل ما اجتمع من العلم في الأمصار الأخرى، وكان قيام كل مركز بهاتين الوظيفتين بصورة متوازنة يؤدي إلى تقدم الثقافة الإسلامية بصورة عامة^١.

ولتوضيح دور الرحلة في الازدهار الثقافي لمدينة "غزة" سنذكر أمثلة عن أهم العلماء الذين ارتحلوا من "غزة" في طلب العلم أولاً، وكذلك عن أهم العلماء الذين شدوا الرحال إليها لينهلوا من علم علمائها الأجلاء.

أ - الرحلة من "غزة" إلى الأمصار الأخرى

يعتبر "أبو الريحان البيروني" (٣٦٢ - ٤٤٠ هـ / ٩٧٣ - ١٠٤٨ م)^٢ من أوائل الباحثين الذين دفع بهم حب العلم والتعرف علي أحوال الناس إلى السفر لأماكن إقامة هذه الشعوب، فساح في أقاليم كثيرة، وأقام في كل بقعة وصل إليها مدة غير يسيرة لكي يتيسر له الإحاطة بأحوالهم من النواحي العلمية والدينية والتعرف بجغرافية بلدهم، فكانت إقامته في "غزة" من العوامل التي ساعدته علي القيام بعدة رحلات علمية إلى الهند، وكان هدفه من ذلك القيام بدراسة علمية دقيقة علي الطبيعة للتعرف علي تاريخ وثقافة وديانات الهند^٣. وذهب "البيروني" إلى الهند كان في مقتبل حياته مرافقاً للسلطان "محمود الغزنوي" (٤٢١: ٣٨٨ هـ / ١٠٣٠: ٩٩٨ م) في حملاته علي الهند، وبينما كان الجيش الغزنوي يتقدم في الفتح كان البيروني يدرس ويتعلم ويبحث ويقارن، ويسجل ما وصل إليه من

١ - ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية في الشام والجزيرة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٠ م، ص ٣٥٩.

٢ - لم يعرف تاريخ وفاته بالضبط إلا أنه يرجح أنه حدث حوالي سنة (٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م). وهناك من يحدده بسنة (٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م). ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ١٧، ص ١٨٦. الشكل رقم (٢)

٣ - أبو الفتح التوانسي: أبو الريحان البيروني، ص ٣٢.

نتائج^١، حتي انتهى بتأليف كتابه العظيم "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة"^٢.

كما قضي "البيروني" أكثر من أربعين سنة يبحث عن نسخة من كتاب "سفر الأسفار" لماني^٣، وذلك لتوخي الحقيقة فيما رواه "أبو بكر الرازي" عن "ماني"، وقد وصل في النهاية أن "الرازي" قد خُذع بما أطلع عليه^٤.

ومن هؤلاء العلماء أيضا "أبو الحسن علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي الهجويري الغزنوي" (ت ٤٦٥ هـ / ١١٦٩ م) الذي تلقى علومه الأولى في موطنه "غزنة"، وعندما بلغ مبلغ الشباب سلك مسلك علماء عصره في السفر والتجوال، وقام برحلات واسعة النطاق، تنقل خلالها في أرجاء العالم الإسلامي من بلاد الشام إلى التركستان، ومن بحر قزوين إلى الهند، وأمضي في هذه المناطق فترات كانت تقصر حيناً وتطول أحياناً، واختلف خلالها إلي عدد من شيوخ الصوفية المعروفين، وقد تمكن عن طريق هذه الرحلات من

١- عبد الحليم محمود وعثمان عبد المنعم: الفلسفة الهندية مع مقارنة بفلسفة اليونان والتصوف الإسلامي (مع فصول من كتاب تحقيق ما للهند)، مصر، مطبعة مخيمر، ١٩٥٩ م، ص ٥. محمد أبي الصلاح: البيروني يسيح في الهند، مجلة ثقافة الهند، العدد ١٢، يناير ١٩٦١ م، ص ٣٨.

٢- سيأتي الحديث تفصيلاً عن الكتاب عند تناوله في علم التاريخ.

٣- ماني: هو زعيم مذهب المانوية، كان راهباً بحران، ولد عام ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م أو ٢١٦ هـ / ٨٣١ م، Bosworth: The Development of Persian Culture under the Early Ghaznavids. p٣٨.

٤- ماني: هو زعيم مذهب المانوية، كان راهباً بحران، ولد عام ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م أو ٢١٦ هـ / ٨٣١ م، وقد استمر هذا المذهب قائماً إلى القرن السابع الهجري، وكانت تعاليمه مزيجاً من الديانة النصرانية والزرادشتية، وخلاصة هذا المذهب أن العالم كما يقول زرادشت نشأ عن أصلين وهما النور والظلمة، وعن النور نشأ كل خير وعن الظلمة نشأ كل شر، وأن الخير والشر قد امتزجا في هذا العالم، وأن هذا الامتزاج شر، ومن أجل ذلك حرم النكاح، حتى يستعجل الفناء ودعا إلى الزهد وشرع الصيام سبعة أيام دائماً في كل شهر، وفرض صلوات كثيرة وقال عن نفسه أنه ماني النبي الذي بشر به عيسى، وقد أثار هذا المذهب مسائل دينية كثيرة كانت موضوع جدل بين علماء الإسلام. (محمد عطيه الإبراشي وأبو الفتوح محمد التوانسي: سلسلة تراجم أعلام الثقافة العربية، المجموعة الثالثة، (د.ت)، ص ١٣٨)

٤- أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية، ص ٣٧.

الاتصال بكثير من كبار رجال الدين والأئمة الصوفية في عصره، فتجادل معهم في المسائل التي كان يهتم بها، وجاهد في الوقت نفسه لكي يستطلع آراءهم ويقف على مذاهبهم، وبذلك استطاع التزود من جميع أنواع الثقافة الإسلامية التي كانت منتشرة في كل بقعة من العالم الإسلامي^١.

ارتحل كذلك من "غزة" "أبو المؤيد عيسى بن عبد الله بن القاسم الغزنوي الواعظ"، إلى خراسان ثم إلى مكة وقام بأداء فريضة الحج، وانتهى به المطاف إلى اسفرايين وتوفي بها سنة (٤٩٨هـ / ١١٠٤م)^٢.

هكذا كان شأن جميع علماء "غزة" حيث لم يكن يكتفي أحدهم بتحصيل العلوم والمعارف في مقر إقامته، بل كان يرحل إلى أي بلد يسمع أن بها شيخاً كبيراً قد يستفيد من علمه حرصاً منه على أن يكون متسع الثقافة ملماً بشتي ألوان المعارف.

ب - الرحلة من الأمصار الأخرى إلى "غزة"

كانت مدينة غزة في ذات الوقت مركز استقطاب للعديد من علماء الأمصار الأخرى، ونذكر منهم "محمد بن الحسين الروبابخاهي" وهو من نواحي بلخ، رحل إلى مرو ثم إلى غزة وسكنها^٣. ومنهم الأديب الكبير "بديع الزمان الهمداني" (ت ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) الذي اتسمت رحلاته بالخصوبة والإثارة معاً، حيث زار العديد من المدن منها أصبهان

^١ - الهجویری: كشف المحجوب، ص ٥٥، ١٤٤.

^٢ - عماد الدين الأصفهانی: خريدة القصر، ص ١٣٠.

^٣ - السمعانی: الأنساب، تعليق عبد الله عمر البارودي، ج ٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م، ص ٩٩.

وجرجان ونيسابور و سرخس وغزنة التي عاش فيها في كنف السلطان "محمود" الشهير برعايته للأدباء وتشجيعهم على الإقامة في بلاطه^١.

ومن هؤلاء الرحالة "شبل الدولة أبو الهيجاء مقاتل بن عطيه بن مقاتل البكري الحجازي" رحل إلى بغداد وخراسان ثم انتهى إلى غزنة، ثم عاد إلى خراسان، وقصد كرمان، وبلاد ما وراء النهر ونزل مدينة هراة ثم توجه إلى مرو واستوطنها، توفي في حدود سنة (٥٠٥هـ / ١١١١م)^٢.

ومنهم أيضا "أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي" (٥٢٩هـ / ١١٣٤م) من علماء نيسابور، رحل إلى الهند وخوارزم و"غزنة"^٣، ثم رجع إلى نيسابور، و حصل علي إجازات عن كل حديث سمعه في رحلته^٤.

وفي حقيقة الأمر أن هناك الكثير ممن ارتحلوا إلى مدينة "غزنة" في طلب العلم، كما سيتضح في ثنايا الحديث فيما بعد، ومما لا شك فيه أن تلك الرحلات كان لها أبعد الأثر في ازدهار الحياة الثقافية في مدينة "غزنة"، فالرحلة هي اليد التي تمتد لتقرب الشعوب والأقوام التي تفصل بينها القفار والبحار ليتم التعارف فيما بينهم، فثمار الرحلة لا تتوقف عند التعارف أو صقل الشخصية وكشف المجهول من طبائع الشعوب لكنها توجد بالمكاسب العلمية والأدبية التي قد يتعذر حصرها، وخاصةً إذا كان صاحب الرحلة

^١ - الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد محمد قميحة، ج٤، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م، ص ٢٩٤.

^٢ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

^٣ - السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، ج٧، بيروت، مكتبة عيسى البابي، ١٩٦٧م، ص ١٧٣. بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج٦، ص ٢٤٥.

^٤ - جورج المقدسي: نشأة الكليات، ترجمة محمود سيد محمد، جدة، جامعة الملك عبد العزيز، ١٩٩٤م، ص ٩٧.

متمتعاً بقوة الملاحظة وبقظة الحواس والرغبة في التحصيل والحرص علي التدوين والتسجيل^١.

كذلك للرحلة الأثر الكبير في سمو الفكر إذ يأخذ العالم بها من التجارب ما لا يؤخذ وهو مقيم في بلده، ولها أيضاً أثر في تهذيب الطباع ورفق الآداب، ذلك أن كثرة ما يلاقيه الرجل في السفر من المشاق يقوى في نفسه خلق الحلم والصبر، كما أن العالم يرحل من وطنه حاملاً علماً غزيراً وينزل بين جماعات في بلاد مختلفة فيرونها مثلاً لأهل العلم والأدب، فيرتفع شأن قومه في أنظارهم، والرحلة تنقل العلم من مكان إلي آخر علي وجه أنفع وأثبت مما تنقله المؤلفات وحدها، كما أن لها فضل كبير في حفظ جانب كبير من التاريخ حفظته الكتب التي يودعها فيها مؤلفوها ما شاهدوه خلال أسفارهم من وقائع وأحوال^٢.

وخلاصة ما سبق كان للرحلة دور كبير في ازدهار الحياة الثقافية في مدينة "غزة"، وذلك عن طريق تنشيط الفكر والخيال وتحفيزه على نقل المعارف والعلوم، الأمر الذي كان له أبعد الأثر في تحرير صفحات عديدة من صفحات العلوم الإسلامية التي تألقت علي مسافة شاسعة من العالم الإسلامي وغير الإسلامي لقرون عديدة بغرسها أشجار العلوم والآداب وشتي ضروب المعارف.

✽ مجالس المناظرات^٣

^١ - فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص ٢٣.

^٢ - محمد الخضر حسين: أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية، ص ٣٢٥، ٣٢٢.

^٣ - المناظرة: فن من فنون القول ينتج عن اجتماع طرفين من أهل الفكر أو الأدب في مجلس يضم جمهوراً، يقع بينهما بحث في موضوع يتفق عليه سلفاً أو يثار في المجلس، وهدف المتناظرين إظهار الحق والوصول إلي الحقيقة والإدعان لها من أي طرف جاءت، وعموم الجمهور أو العلماء يحكم بين المتناظرين، وقد تبدأ المناظرة برأي أو سؤال، وتنتهي بانقطاع حجج أحد طرفيها، فتكون الغلبة للآخر. وهي تختلف عن الجدل الذي يعرف بأنه مشادة كلامية أو فقهية تهدف إلي تحقيق الغلبة لما أعتنق من مذهب، فالجدل هو الدفاع عن قضية أو السعي لهدمها بغض النظر عن طبيعتها أو علاقتها بالحقيقة. (رحيم الحسناوي:

لا شك أن المناظرات كانت من أهم سمات القرن الرابع الهجري، وكان الاتجاه السائد في ذلك الوقت يميل إلى تشجيع المناظرات علي اعتبار أنها وسيلة لتوسيع الأفق الفكري، وأداة للتبادل العلمي والثقافي، فقد اختارها العلماء والشيوخ طريقاً لتعميق المعرفة، وصارت مقياساً لعلمهم يوصفون بها، ووسيلة من أهم وسائل نشر أفكارهم والتعريف بفرقهم ومذاهبهم^١. فمع نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجريين أصبحت المناظرة فرعاً راقياً من فروع الدراسات الفقهية، فمن أراد أن يصبح فقيهاً ضليعاً فعليه أن يبرع في المناظرة.

إذن فالمناظرات ساعدت علي ازدهار الجوانب الثقافية في العالم الإسلامي ككل، كما كان لها تأثير بالغ في تفكير المسلمين لأنها استلزمت إحاطة المتناظرين بعلوم شتي مع مراعاة التزامهم بقواعد المنطق، ويعد هذا من أبرز دعائم الثقافة الإسلامية التي التزم بها العلماء المسلمون^٢.

وتعد المناظرات كذلك من الثمار الراقية للحضارة الإسلامية، وعامل من عوامل تقدمها، ذلك لأنها اقترنت بآداب رافقتها وظلت ملازمة لها. ومن أهم آدابها التزام طرفيها بأن الغاية منها كشف الحقيقة^٣، والوصول إليها عن طريق أحدهما، ولا يهم من أي منهما كانت^٤، لأن المقصود بها ظهور الحق وطلب الفائدة^٥، متذكرين قول الله تعالى ﴿لِيُحَقِّقَ

المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية، عمان، الأردن، دار أسامة، ١٩٩٩م، ص ٥٤.
بركات محمد مراد: منهج الجدل والمناظرة في الفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٣. حسين الصديق: المناظرات في الأدب العربي الإسلامي، الشركة المصرية العالمية للنشر، ٢٠٠٠م، ص ٦٢.
جورج المقدسى: نشأة الكليات، ص ١٢٧.

١- رحيم الحسناوى: المرجع نفسه، ص ١٨.

٢- منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٥٨.

٣- الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٥٦.

٤- طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة، ج ١، ص ٣١. حسين الصديق: المرجع نفسه، ص ٦١.

٥- ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص ٩١.

الْحَقُّ وَيُطِلُّ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ^١، كذلك تتطلب آداب المناظرة جلوس المتناظرين متقابلين في المجلس^٢، والتزام الهدوء والروية وحسن الإصغاء وقلة الكلام وترتيبه^٣.

كان يوم الجمعة هو اليوم المفضل لعقد المناظرات حول جميع مسائل العلوم الدينية^٤، أما موضوعاتها فلم تقتصر على فرع من فروع العلوم، وإنما شملت مختلف العلوم في الحضارة الإسلامية، بل يمكننا القول أن مواضيعها لم تحدد قط، والذي ساعد على ذلك تنوع مجالات الثقافة وتعددتها في ذلك الوقت، وظهور متخصصين في مجالات عديدة منها.

كان لحرص سلاطين الدولة الغزنوية على اجتماع العلماء من الفقهاء والمتكلمين والأدباء واللغويين أثره في ازدهار المناظرات، فكان كل هؤلاء يجتمعون في بلاط "غزنة" لعقد المناظرات، وكثيراً ما كان السلاطين يأمرهم بعقدها ويتولون هم رئاستها، وكان الغرض منها الفصل في الخلافات التي تقع بين العلماء مختلفي المذاهب، وهذا ما فعله السلطان "محمود" عندما عقد مجلس مناظرة بين الأستاذ "أبي إسحاق الإسفراييني" وبين الكرامية^٥، وذلك لأن آراء ابن كرام وأتباعه أثارت الفرق الإسلامية الأخرى لما فيها من مخالفة ظاهرة لما أوجبه الإسلام من اعتقاد التنزيه، لذلك تصدى العلماء لمناظراتهم^٦.

^١ - الأنفال: (٨)

^٢ - رحيم الحسناوى: المناظرات الأدبية واللغوية، ص ٨١.

^٣ - عنصر المعالي: قابوسنامه (كتاب النصيحة)، ترجمة صادق نشأت وأمين عبد المجيد بدوى، دار الأنجلو المصرية، ١٩٥٨م، ص ١٦٤. رحيم الحسناوى: المرجع نفسه، ص ٨٢.

^٤ - جورج المقدسى: نشأة الكليات، ص ١١٠.

^٥ - الكرامية: نسبة إلى "أبي عبد الله محمد بن كرام السجستاني" (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٩م)، كان والده يعمل خازناً للكروم، فقيل له كرام، كان قليل العلم، أخذ من كل مذهب ضغثاً وضمنه في كتاب أسماه "عذاب القبر"، وتنقل في أماكن كثيرة ناشراً مبادئه وتعاليمه معلناً خلافه للمذاهب السنية والشيوعية على السواء، ويتلخص مذهب الكرامية في أنهم يسمون المعبود، فقال "محمد بن كرام" عنه أنه جسم له حدود ونهاية من تحته ومن الجهة التي منها يلاقي عرشه، وقالوا: إن النبوة والرسالة صفتان وحالتان في النبي

كما انعقدت المناظرات في "غزة" للمناظرة بين السنة والشيعة، فعندما أرسل الخليفة الفاطمي "الحاكم بأمر الله" (٣٨٦: ٤١١ هـ / ٩٩٦: ١٠٢٠ م) داعياً إلى السلطان "محمود" رفض السلطان مقابلته، وبعث إليه عدد من العلماء لمناظرته علناً وإثبات بطلان نسبه وفساد عقيدته^٢.

ويظهر من ذلك أن المناظرات المرتبطة باختلاف المذاهب أصبحت من مظاهر العصر العلمية في ميدان العلوم الدينية، وهي انعكاس للصراع المذهبي الذي كان مشتتاً في ذلك الوقت، فعمل كل فريق علي نصرة مذهبه^٣. ومن دعا إلى عقد المناظرات في مدينة غزة الإمام "أبو بكر بن فورك" (ت ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م) الذي أجرى مناظرات عظيمة بها، و"أبو المحاسن سعد الجولكي" (ت ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م)^٤.

كما كان "شمس الدين أبو المكارم أحشاذ الغزنوي" (ت ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م) من كبار المناظرين في مدينة "غزة" ناظر في المسائل الخلافية في الفقه، ومن إنشاده الذي يدل على غلبته في هذا المجال..

والرسول، وزعموا أن من فيه هذه الصفة وجب علي الله تعالي إرساله. وتبلغ فرق الكرامية اثنتي عشر فرقة لكن أصولها ستة وهم: العائدية والنونية والإسحاقية والواحدية والزرينية والهيصمية ولكل فرقة رأى في التجسيم. (الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، ج ١، القاهرة، مؤسسة الحلبي، (د.ت)، ص ١٠٩. محمد الإسفراييني: التبصير في الدين، تحقيق محمد زاهر الكوثرى، القاهرة، مطبعة الأنوار، ١٩٤٠ م، ص ٦٦. الصفدى: الوافي بالوفيات، ج ٤، ص ٢٦٥. سهر محمد مختار: التجسيم عند المسلمين مذهب الكرامية، القاهرة، ١٩٧١ م، ص ٤٧)

١- أبو الوفا التفتازانى: علم الكلام وبعض مشكلاته، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٦ م، ص ١٠٩.

٢- السمعاني: الأنساب، ج ١، ص ٤٤٤. الكرديزى: زين الأخبار، ص ٢٩١.

٣- مرتضى راوندی: تاريخ اجتماعى إيران، جلد بنجم وهشتم، چاپ سوم، طهران، ١٣٧٤، ص ٣٤٦.

٤- ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٣، ص ١٨١. السبكي: طبقات الشافعية، ج ٤، ص ١٣٠. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٣.

٥- السمعاني: الأنساب، ج ٢، ص ١٢٤.

عارض إلزامي بالفقهه

مالي إذا ألزمته حجة

فالدب في الصحراء ما أفقهه^١

إن كان فقه المرء في ضحكه

وإذا أعجب السلطان بأحد طرفي المناظرة ينعم عليه بإنعامات عظيمة، وهذا ما حدث مع الفقيه "أبي النصر التباني" عندما نال إعجاب السلطان "محمود" في إحدى المناظرات فأُسند إليه منصب قاضي قضاة إقليم ختلان^٢.

وكان للصوفية نصيب من هذه المناظرات وخاصة مع علماء الهنود لإقناعهم بالإسلام، وقد شارك "أبو الحسن الهجویری" (ت ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م) في تلك المناظرات حيث عقد له مجلس مناظرة مع أحد حكماء الهنود فأفحمه تمامًا، كما أشار في كتابه "كشف المحجوب" إلى مناظرة وقعت في بلاط "غزة" بينه وبين أحد مدعي العلم في مسألة تتعلق بالتصوف^٣.

وهناك من المناظرات ما كان يهدف أحد طرفيها إلى اكتساب الشهرة بتحدي العلماء البارزين ومناظرتهم، وهذا ما حدث مع "بديع الزمان الهمذاني" (ت ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م) الذي جرت بينه وبين "أبي بكر الخوارزمي" (ت ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م) مناظرات تباحثا فيها في شتي ضروب الأدب المعروفة في عصرهما، ولاقت مناظراتهما صدي كبير لدى جمهور الأدباء، وكان لها تأثير كبير في حياة "بديع الزمان الهمذاني" بانتصاره على "الخوارزمي" الذي لم يتجرأ علي مجاراته أحد، فذاع صيته في الآفاق، وارتفع قدره عند الملوك والرؤساء، وكانت سببًا في ذهابه إلى "غزة" وتقربه من السلطان "محمود"، وتمتعه في "غزة" بعيشة هنيئة^٤.

^١ - الأصفهاني: خريدة العصر، ج ٢، ص ١٣٦.

^٢ - البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٢٢٦.

^٣ - الهجویری: كشف المحجوب، ص ٢٥.

^٤ - الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٢٩٥. مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠٠٣ م، ص ١٧٥.

الخلاصة أن تلك المناظرات كان لها دور عظيم في ازدهار الحياة الثقافية في مدينة "غزة"، فقد أغنتها وزودتها بالعديد من المصطلحات الفلسفية والعلمية والكلامية، وفتحت أمام التراث الديني أبعاد جديدة وسعت مدي أفقه الثقافي.

الترجمة^١

الحضارات المختلفة ما هي إلا أخذ وعطاء، وذلك الأخذ وهذا العطاء ليس بمقدورهما أن يتحققا دون اللجوء إلى وسيط، ونعني به الترجمة من اللغات المختلفة التي كتبت بها علوم تلك الحضارات^٢، فالترجمة وسيلة من وسائل التعرف على الآخر والوقوف على أشكال ونماذج من التنوع الخلاق في مجال الفكر والإبداع على حد سواء. لذلك كانت الترجمة من العوامل المهمة وراء ازدهار الثقافة ليس في مدينة "غزة" فحسب ولكن في العالم ككل^٣.

كانت البداية الفعلية لنشاط حركة الترجمة بعد استقرار أمور الحكم وزيادة الثروات ونشاط الرحلات وظهور نوع من الاتصال الثقافي بين الأمم ذات الحضارات القديمة، فأقبل العلماء على احتضان التراث المتنوع الذي اكتشفوه في الممالك الجديدة التي انتشر فيها

^١ - الترجمة: في اللغة هي التعبير عن لغة بلغة أخرى، وترجم فلان كلامه أى وضع وبين وترجم كلام غيره إذا عبر عنه بلغة غير لغة المتكلم، وهي إيصال فكرة أو تبليغها أو تحويل التبليغ إلى لغة أخرى وإعطائه شكلاً مكتوباً أو مسموعاً، أو هي وضع صيغة مطابقة لصيغة في لغة النقل. (النسائي: كتاب العلم، ص ٧٩. علي إبراهيم الحمد النملة: النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية، ط ٣، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠٠٦م، ص ١٧)

^٢ - رشيد الجميلي: حركة الترجمة في المشرق في القرنين الثالث والرابع، ص ٣١٣.

^٣ - Georg Sarton: The History of Science, New York, ١٩٥٦, p٨٢.

الإسلام، ومن اللافت للانتباه أن ذلك التراث حظي بالتعظيم والاحترام من قبل علماء الإسلام، فانكبوا عليه لترجمته للعبور به من الماضي إلى الحاضر كخطوة أولى وجه السرعة ليبدأ استخدامه بعد ذلك^١.

وخلال فترة وجيزة كان علماء الإسلام قد اتموا عملاً جليلاً في الكشف عن التراث الثقافي العظيم الذي وصل إليهم من الحضارات الأخرى، فقد اطلع العلماء على المؤلفات العلمية لهذه الحضارات واستفادوا من جهود الأمم السابقة، فصحيحوا أخطاءها وأكملوا ما نقص منها، هذا بالإضافة إلى ابتكارهم علوم جديدة، فكان للترجمة دور كبير في تطوير وابتكار أشياء جديدة عن طريق التجارب وخاصة في العلوم العقلية، لأنها مزيج من النقل والابتكار في ذات الوقت^٢، مما سيتم توضيحه في الفصول القادمة إن شاء الله.

تعتبر مرونة اللغة العربية من أهم العوامل التي يسرت حركة الترجمة. وبالتالي ازدهار الحياة الثقافية. فكثرة مترادفات وقدرتها على التعبير جعلها تستوعب كل العلوم والمعارف بكل يسر، فأصبحت وسيلة ناجحة للنقل دون عناء، واستطاع المترجمون أن يجدوا في مواردها الخصب أداة غنية بالتعبير والمترادفات مكنتهم من استغلالها في وصف أدق الحالات وأعقدها^٣. كما كان دخول أمم كثيرة تحت ظل الإسلام من فرس وهنود وسريان وغيرهم، والذين لجأوا إلى نقل تراثهم الفكري على سبيل المباهاة، ليشبوا ما كانت عليه حضاراتهم من رقي دوره في ازدهار الترجمة^٤. وقد عبرت الترجمة الفارسية لكتاب "كليلة ودمنة" عن هذا التوجه.

كذلك كان لظهور الفرق الإسلامية الأثر الكبير في ازدهار حركة الترجمة، فكل فرقة حاولت دعم آراءها وأفكارها والدفاع عن عقيدتها أمام المخالفين لها، ولذلك كانوا في

^١ - تيرنر: العلوم عند المسلمين، ترجمة فتح الله الشيخ، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤م، ص ٥٩.

^٢ - عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم، الأردن، مكتبة المنار، ١٩٨٢م، ص ٦٤.

^٣ - رشيد الجميلي: حركة الترجمة في المشرق في القرنين الثالث والرابع، ص ٥٥.

^٤ - علي إبراهيم الحمد النملة: المرجع نفسه، ص ٦٤.

حاجة إلى قوالب علمية منطقية تصب فيها أفكارهم لتزداد انطلاقاً، فلبجأوا إلى وسائل الفلاسفة للرد علي خصومهم، وذلك عن طريق ترجمة الكتب الفلسفية، الأمر الذي ترتب عليه شدة الإقبال علي تلك الكتب وترجمتها^١، فانكب العلماء علي ترجمة المؤلفات اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها.

هذا وقد اعتمدت عملية الترجمة في دقتها وأمانتها علي تمكن المترجمين من اللغة العربية وإتقانهم اللغات الأخرى التي ينقلون منها، فأقبلوا علي الكتب بحب وشراسة واستوعبوا كل ما فيها ثم بدأوا في تنقيحها وترتيب علومها وشرحها والتعليق عليها وحذف ما يتنافى مع الشريعة الإسلامية، كما أضافوا إليها من تجاربهم وخبراتهم^٢. كما أنهم بذلوا جهوداً عظيمة في الحصول علي أوثق الأصول والمقابلة بينها وتنقيحها، بل كانوا يترجمون النص الواحد أكثر من مرة للوصول إلي درجة عالية من دقة الترجمة وبساطة التعبير^٣، وهذا ما سيتم توضيحه في ثنايا الحديث عن علماء مدينة "غزة" ودورهم في حركة الترجمة.

كان "ابن الخمار"^٤ (ت بعد ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م) من بين هؤلاء الأعلام الذين ساهموا بجهده لا يمكن إنكاره في ترجمة التراث السرياني إلى اللغة العربية^١، ومن أهم الكتب التي ترجمها:-

١- رشيد الجميلي: حركة الترجمة في المشرق في القرنين الثالث والرابع، ص ٥٧.

٢- أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية، ص ٣٢.

٣- الخوارزمي: مفاتيح العلوم، تحقيق فان فلوتن، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤ م، ص ٢٢.

٤- أبو الخير الحسن بن بابا سوار بن بهنام المعروف بالخمار، كان في الأصل مسيحياً نسطورياً سريانياً، ولد عام (٣٣١ هـ / ٩٤٢ م)، قرأ الحكمة علي يد يحيى بن عدي، كان فطناً مضطرباً بعلم الصحابة، صادف نجاحاً كبيراً كطبيب، ومن أجل هذا سمي "أبقراط الثاني"، دعاه السلطان "محمود" إلي قصره في "غزة"، وهناك أسلم، وهو في سن متقدمة. (الشهرزوري: تاريخ الحكماء، ص ٢٩٦. استاذ خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٣٥١. محمد فتحى عبد الله: مترجمو وشرح أرسطو عبر العصور، الإسكندرية، دار الوفاء، ٢٠٠٠ م، ص ١٧١. بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج ٤، ص ١٥٢. ذبيح الله صفاء: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٢٨١)

➤ في المنطق:

- كتاب اللبس في الكتب الأربعة في المنطق الموجود من ذلك، نقله من السريانية إلى العربية.

. كتاب تقسيم إيساغوجي وقاطيغورياس لألينوس الأسكندري، نقله من السريانية إلى العربية.

- ترجمة عربية لتعليقات "يحيى بن عدي" السريانية علي التحليلات الأولى.

➤ في الطبيعيات:

- الآثار العلوية، وهو ترجمة لكتاب أرسطوطاليس المعروف بهذا الاسم، نقله من السريانية إلى العربية.

➤ في الأخلاق:

- كتاب مقالة في الأخلاق، نقله من السريانية إلى العربية.

➤ في ما بعد الطبيعة:

- مسائل ثاوفرسطس، نقله من السريانية إلى العربية^٢.

ولا ترجع أهمية "ابن الخمار" في مجال الترجمة إلى قيامه بترجمة بعض الكتب السريانية إلى العربية وإنما ترجع إلى ما أشار إليه من المنهج الذي ينبغي إتباعه في الترجمة لتصحيح ما وقع فيه المترجمون من أخطاء وكيفية تلافيها، فهو يري أن من يقوم بالترجمة ينبغي أن يكون حاصلاً على شروط معينة حتي يتمكن من الترجمة الصحيحة.

^١ - الشهرزوري: المصدر نفسه والصفحة. محمد فتحي عبد الله: المرجع نفسه، ص ١٧٤. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه والجزء، ص ٢٨٢.

^٢ - إبراهيم محمد تركي: ابن الخمار فيلسوف من القرن الرابع الهجري، الأسكندرية، دار الوفاء، ٢٠٠٥م، ص ٥٢. محمد فتحي عبد الله: المرجع نفسه، ص ١٧٣، ١٧٤.

ومن تلك الشروط: أن يكون المترجم علي دراية عميقة بمعاني الألفاظ في اللغة التي يترجم منها والتي يترجم إليها، وأن يكون علي علم بالاستعمالات المتعددة للألفاظ سواء في اللغة التي يترجم منها أو إليها، ومن الأفضل أن تكون الترجمة مباشرة من اللغة الأصلية للكتاب الذي يراد ترجمته وذلك لأن الترجمة الأولى قد يحدث فيها أخطاء لا يمكن تجنبها في الترجمة الثانية^١.

ويعد "أبو الريحان البيروني" (ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) كذلك من أهم رواد حركة الترجمة في مدينة "غزنة"، فقد قام بترجمة العديد من الكتب، والذي ساعده في ذلك إجادته للعديد من اللغات السائدة في ذلك العصر، فكان يعرف إلي جانب العربية الفارسية والعبرية والسريانية والسنسكريتية^٢. لغة الثقافة الهندية الأولى- والتي دونت بها المؤلفات الهندية الشهيرة، والتي ساعدته معرفته بها علي إنجاز مؤلفاته الهامة عن الهند^٣.

^١ - إبراهيم محمد تركي: ابن الخمار فيلسوف من القرن الرابع الهجري، ص ٨٣. عبد الرحمن بدوي: منطق أرسطو، ج ٣، بيروت، دار القلم، ١٩٨٠ م، ص ١٠٥٣.

^٢ - سنسكريت: معناها اللغة التامة أو المهيبة، لغة الهنود القديمة أخذت في الاضمحلال قبل الميلاد بنحو قرن، فصارت كاللاتينية في عصرنا، يستعملها العلماء والنحاة في تواليفهم، وسميت سنسكريت للفرق بينها وبين البراكريت وهي اللغة العامية. والسنسكريتية أقدم اللغات الهندية وأكثرها إحاطة بأحوال الشعوب والأمم الهندية وتكتب بحروف تدعى "ديفاناغاري" أي المدينة الأهلية وعددها ٥٣ حرفاً، ومن أقدم ما دون بها "الفيدا" أو كتب الهنود الأربعة المقدسة ونظامات "مانو" وقصائد "راماينا" و"ماهاباراتا". والبراهمة يتعلمونها إلى اليوم، وكذلك الأشراف والأغنياء في الهند. (محمد عطية الإبراشي وأبو الفتوح محمد التوانسي: سلسلة تراجم أعلام الثقافة العربية ونواحي الفكر الإسلامي، ص ١١٩)

^٣ - محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الطبيعية والطب، مكتبة القرآن، القاهرة، (د.ت)، ص ١٥٢. أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية، ص ٣٦. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٢٨٢.

أما الذى دفعه إلى تعلم تلك اللغة ما قاله عن نفسه: "كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتى فيما بينهم، وقصورى عما هم فيه من مواضعاتهم"^١. أما عن تعلمه اللغة اليونانية فقد قال عن نفسه: "جاءنا في شتاء عام (٣٨٤هـ / ٩٩٤م) رجل رومي، وقد حظيت منذ حادثتى بفرط الحرص علي اقتناء المعارف بحسب السن والحال، ويكفي شاهدًا عليه أن روميًا (رجل يوناني) حل أرضنا فكنت أجيء بالحبوب والبذور والثمار والنبات وغيرها، وأسأله عن أسئلتها بلغته وأحررها"^٢.

وكانت هذه أول إشارة إلى تعلمه اللغة اليونانية، فحرصه على سلامة منهجه العلمى هو الدافع الذى دفعه إلى دراسة عدة لغات لأنه أخذ علي نفسه تحقيقًا لمنهجه الالتزام بالرجوع إلى المصادر الأصلية فيما يكتبه التزامًا صارمًا.

أما عن أهم الكتب التي قام "البيروني" بترجمتها كتاب "بياتنجل"^٣ Pateingle وعنوانه "جوكاسوترا"، وهو في موضوع تخلص النفس من رباط البدن، فهو يصور فلسفة جوكا الهندية وهى فلسفة دينية تقوم على أساس تعذيب الجسد في سبيل خلاص النفس. وقد اتبع البيروني في ترجمة هذا الكتاب طريقة السؤال والجواب، وقد تكرر السؤال والجواب في هذا الكتاب مرات عديدة، ومن أمثلة تلك الأسئلة والأجوبة ما يأتي:-

قال السائل: من هذا المعبود الذى ينال التوفيق بعبادته؟

^١ - البيروني: تحقيق ما للهند، ص ٢٠.

^٢ - البيروني: الصيدنة، تحقيق الحكيم محمد سعيد و رانا إحسان، باكستان، مؤسسة همدرد الوطنية، ١٩٧٣م، ص ١٤.

^٣ - البيروني: تحقيق ما للهند، ص ١٦. (بياتنجل مؤلف هندي عاش تقريبًا حول سنة ٣٠٠م، وكتابه "جوكاسوترا" كلمة "جوكا" في اللغة الهندية معناها: التصوف الهندى، وهو مخالف للتصوف الإسلامى فالتصوف الهندى نوع من الزهد الغاية منه الوصول إلى تلك الأعمال العجيبة المشهورة التى منها رفع الجسم في الهواء وتحريك الأشياء البعيدة، أما كلمة "سوترا" فيقصد بها المتن الذي يحفظ، ويكون معنى جوكاسوترا متن التصوف الذى يجب أن يحفظ). التوانسي: أبو الریحان البيروني، ص ٧٦.

^٤ - حسن حنفى: من النقل إلى الإبداع، ج ١، القاهرة، دار قباء، ٢٠٠٠م، ص ١٠٥.

. قال المجيب: هو الله المستغنى بأوليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحه تؤمل وترتجي أو شدة تخاف وتنتقى.

. قال السائل: فهل له من الصفات غير ما ذكرت؟

. قال المجيب: له العلو التام في القدر لا المكان فإنه يجلب عن التمكن، وهو الخير المحض التام الذى يشताقه كل موجود^١.

كما تمكن بمساعدة البانديت الهنود^٢ من ترجمة كتاب في المبادئ ووصف الموجودات، واسمه "سانك"^٣، وقد اعتمد في مؤلفه عن الثقافة الهندية اعتماداً رئيسياً على مصادر هندية من بينها كتاب "البهجفتجتا" القيم، وقام بالترجمة من اللغة العربية إلى السنسكريتية، كتاب "الأصول في الهندسة" لإقليدس، وكتاب "المجسطي في علم الهيئة" لبطليموس، وكتاب "العمل في الإسطرلاب"^٤، وبذلك بسط البيروني لعلماء الهند ما عند علماء اليونان من نظريات هندسية ورياضية، فعلت مكانته وسمت منزلته عندهم، وأقبلوا على علمه وتنافسوا على حضور مجالسه.

إذن "فالبيروني" يعتبر أول عالم مسلم يربط علوم الهند بعلوم الإسلام عن طريق دراسته لفلسفة الهند، وعن طريق ما قام به من ترجمة المؤلفات الهندية من اللغة السنسكريتية إلى اللغة العربية، وكان بتعرفه الدقيق على أصول الحكمة الهندية مباشرة في وصفها وفي لغتها وعلى أيدي علمائها الكبار، أقدر عالم استطاع أن يودع هذه النفائس

^١ - البيروني: تحقيق ما للهند، ص ٢٣.

^٢ - البانديت pandits: المقصود بها العلماء الحكماء العارفون باللغة السنسكريتية. بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج ٥، ١٩٦٠.

^٣ البيروني: المصدر نفسه، ص ١٦.

^٤ - بروكلمان: المرجع نفسه والجزء، ص ١٢٦.

^٥ - البيروني: المصدر نفسه، ص ٩٦. محمد عبد الحميد الحمد: حياة البيروني، سوريا، دار المدى، ٢٠٠٠م، ص ٥٢. ريسلر: الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٨م، ص ١٨٣.

العلمية كتبه القيمة، فأخرج للمكتبة العربية إنذاك نتائج بحوث ونظريات تعد بداية عصر جديد للثقافة الإسلامية^١.

ويتضح من كتاب "تحقيق ما للهند" مدي المعاناة والصعوبات التي كان يلقاها "البيروني" في الترجمة، ومدي الدقة التي كان يتوخاها، ففي الكتاب الكثير من النصوص التي يتحدث فيها عن كيفية الترجمة وصعوباتها، وتبين لنا تلك النصوص مدي التحليل العميق الذي يجريه "البيروني" لعملية الترجمة تحليلاً داخلياً وخارجياً يتصل باللغة وبنائها وتركيبها الداخلي^٢.

هناك أيضاً حركة ترجمة متبادلة بين اللغتين العربية والفارسية، تمثلت في ترجمة كتاب "كليلة ودمنة"^٣ من اللغة العربية إلى اللغة الفارسية، قام بتلك الترجمة "أبو المعالي نصر الله الغزنوي"^٤، الذي اطلع علي ترجمة "ابن المقفع" العربية، وأعجب بها فقام بترجمتها وأتمها

^١ - التوانسي: أبو الريحان البيروني، ص ٣٩.

^٢ - البيروني: تحقيق ما للهند، ص ١٧، ١٨.

^٣ - كليلة ودمنة: من كتب اللغة السنسكريتية، اسمه القديم "كرتكامنكا" ألفه الفيلسوف الهندي "بيديا" باسم الملك الهندي "دبشليم" ثم ترجم إلى اللغة البهلوية. الفارسية القديمة. وظل متداولاً في إيران بتلك اللغة حتي إندثار اللغة البهلوية عقب الفتح الإسلامي، فأقدم "ابن المقفع" علي ترجمته إلي العربية، وتلك الترجمة يرجع إليها الفضل في بقاء "كليلة ودمنة" والحفاظ عليها من الاندثار، فهي الأصل لكل الترجمات الموجودة حالياً لهذا الكتاب الفريد الذي ترجم إلي معظم لغات العالم. (بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٠م، ص ١١٤)

^٤ - هو "أبو المعالي حميد الدين نصر الله بن محمد بن عبد الحميد الغزنوي"، التحق بخدمة الدولة الغزنوية في عصر السلطان "بهرام شاه" (٥٤٧: ٥١٢ هـ / ١١١٨: ١١٥٢م) الذي شجعه علي إتمام الترجمة، وقد قدمها له "أبو المعالي" بعد إتمامها، وقد ترقى "أبو المعالي" في مناصب الدولة حتى وصل إلى الوزارة في عهد "خسرو ملك" (٥٥٥: ٥٨٢ هـ / ١١٨٦: ١١٦٠م)، ولكن لم يطل مكثه بها لتدخل الوشاة بينه وبين "خسرو ملك" مما أدى إلى سجنه ثم قتله سنة (٥٥٥ هـ / ١١٦٠م). (علي الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٣٦١)

بعد سنة (٥٣٩هـ / ١١٤٤م)، وقدمها إلى السلطان "بهرام شاه" (٥١٢: ٥٤٧هـ / ١١١٨م)؛ لذلك فهي تعرف باسم "كليلة ودمنة بهرامشاهي"^٢.

ونتيجة لنجاح "أبي المعالي" في ترجمتها حاول عدد كبير من الكتاب والشعراء كتابتها من جديد، ومع كثرة الترجمات والشروح التي حظيت بها الترجمة الفارسية لكتاب "كليلة ودمنة" فإن ترجمة "أبي المعالي" تعد أحسنها جميعاً وأكثرها تداولاً^٣. ويرجع ذلك إلى أن أسلوب الترجمة الفارسي جاء من الأسلوب العربي، وكذلك لاهتمام "أبي المعالي" بالصور البلاغية والمحسنات اللفظية والمعنوية، وعدم التزامه بمجرد الترجمة بل أضاف إلى الترجمة العديد من مظاهر الاقتباس من الأشعار العربية والفارسية والحكم والأمثال وآيات القرآن الكريم كوسيلة منه لتجميل الأسلوب وتزيينه، لذلك كان لترجمته أثرها في إثراء كلا من الأدب العربي والفارسي^٤.

يتضح مما سبق أن حركة الترجمة من العوامل الهامة وراء الازدهار الثقافي لمدينة "غزنة"، فقد تم من خلالها انتشار جميع العلوم والآداب التي ترجمت من تراث الحضارات الأخرى، فمن خلالها انتقلت الفلسفة اليونانية للمسلمين^٥، التي وجدوا فيها زاداً حكماً وفلسفياً مكنهم من معالجة قضاياهم معالجة عقلية منطقية تتفق مع عصرهم من حيث شرح العقائد الإسلامية والرد على المبتدعة^٦. كذلك ساعدت الترجمة على حفظ تراث الإنسانية من الضياع، فلولا ترجمة ذلك التراث لأندثر تماماً وتأخر تقدم البشرية لعدة

^١-Arberry: Classical Persian Literature, p٢٤.

^٢- استاذ خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٢٦٠.

^٣- بديع محمد جمعة: المرجع نفسه، ص ١١٦.

^٤- ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٩٥٠. استاذ خليلي: المرجع نفسه، ص ٣٥٤.

^٥- أبو الوفا التفتازاني: علم الكلام وبعض مشكلاته، ص ٧.

Gibb: Arabic Literature , London , ١٩٢٦, p٣٥.

^٦- علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة، بيروت، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٢م، ص ٣٣.

قرون، ولكن ترجمته أخرجته من عالم النسيان وبعثت فيه روحاً جديدة وجعلته في متناول رواد المعرفة.

كما تكونت بفضل الترجمة في القرن الرابع الهجري مصطلحات علمية اغزيرة في الطب والكيمياء والفلسفة والمنطق وجميع العلوم التي ترجمت، واعتمد المترجمون في هذا المجال علي اللغة العربية أولاً، واستعملوا المجاز باستعارة ألفاظ ذات دلالات لغوية معروفة وشاءوا لها تأدية معاني جديدة، ولجأوا في بعض الأحيان إلي العلوم مستعملين بعض مصطلحاتها للتعبير عن المعاني الجديدة، وبذلك ظهرت بعض المعلومات المشتركة بين العلوم المختلفة عند المسلمين^٢.

وأدرك "البيروني" أهمية المصطلح العلمي ودوره في بناء المعرفة، فاهتم بمعرفة الكثير من اللغات التي ساعدته علي الإحاطة بالكثير من المصطلحات والمفاهيم في كل علم يخوض فيه، وقد لاحظ اختلاف اسم الشيء الواحد من لغة إلي لغة، لذلك اهتم بنقل أسماء الأحجار والمعادن ومختلف المواد في كتابه عن الجواهر بكل اللغات المعروفة في ذلك الوقت^٣.

وأخيراً فإن كل متتبع للدور الذي لعبته الترجمة في تاريخ الإسلام الحضاري والثقافي يجد أنها كانت جسراً فعالاً من الحوار مع الحضارات السابقة علي الحضارة الإسلامية

^١ - المصطلح: هو اللفظ الذي يتفق عليه العلماء ليدلوا به علي شيء محدد ويميزوا به معاني الأشياء بعضها عن بعض، والمصطلح العلمي يتبع بالضرورة تقدم العلوم وازدهارها بما يصاحبه من اكتشافات واختراعات، فليس من شك في أن التقدم والتطور في مجال العلوم ينتج عنه أشياء جديدة تقتضي مسميات، فيضطلع العلماء علي تسميتها تسمية توائم بين المعني اللغوي والمعني الاصطلاحي الذي يختارونه. بركات محمد مراد: البيروني فيلسوفاً، ص ٨٠.

^٢ - المرجع السابق، ص ٨٠، ٨١.

^٣ - البيروني: الجواهر في معرفة الجواهر، تحقيق يوسف الهادي، شركة انتشارات علمي وفرهنكي،

والحضارات اللاحقة لها، فالحوار الحضاري من أهم ركائز التعايش بين الأمم، ويتم بأشكال متعددة لعل الترجمة من أبرزها، ذلك أن الحضارة حوار ثقافي مستمر بين الأمم المتباينة الألسن، وأفضل أدوات التواصل هو اللسان الذي قال عنه البيروني: "إن اللسان مترجم للسامع عما يريده القائل في الوقت الراهن، فكيف يتيسر نقل الخبر من الماضي إلى المستقبل علي الألسنة مع تطاول الأزمنة؟ إنه لولا قوة النطق في الإنسان المبدع للخط الذي يسري في الأمكنة سريان الرياح وفي الأزمنة سريان الأرواح ما كان ذلك ممكناً".^١

منهج البحث العلمي^٢

كان لعلماء الحضارة الإسلامية فضل السبق في اتباع الأساليب العلمية في أبحاثهم ودراساتهم، بمعنى آخر فهم واضعو أسس البحث العلمي بالمعني الحديث. فالعلم عبارة عن منهج وخطة بحث، ومنهج البحث هو المعبر عن روح الحضارة لأي أمة من الأمم، فحيث توجد حضارة يوجد منهج، وشرط قيام العلم هو أن يكون هناك طريقة تطوي تحتها شتات الوقائع والمفردات المبعثرة هنا وهناك، بهدف إيجاد روابط وعلاقات بين تلك

^١ - البيروني: تحقيق ما للهند، ص ١١٩. علي بن إبراهيم أحمد النملة: النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية، ص ١٦١.

^٢ - المعني الاشتقاقي لكلمة منهج هو مصدر بمعنى طريق أو سلوك، وهو مشتق من الفعل نهج أو سلك، والمعني الاشتقاقي لكلمة علمي: منسوبة إلي العلم، وهو بمعنى المعرفة والدراية والإدراك، والعلم يعني الإمام بالحقيقة والمعرفة بكل ما يتصل بها. وعلي ذلك فالمنهج العلمي هو مجموعة من الوسائل التي يأخذ بها الباحث ليصل إلي نتائج سليمة من بحثه ويتصل بها إلي اكتساب العلم والمعرفة. أو هو الأسلوب الذي ينتهجه العالم في بحثه أو دراسة مشكلته والوصول إلي حلول لها أو إلي بعض النتائج. هناء فوزي عامر: منهج الأطباء العرب، الكويت، القاهرة، دار سعاد الصباح، ١٩٩٣م، ص ١٠٩. (عبد الستار أبو غدة: رب زدني علماً، منهجية العلم في الإسلام، ص ١١٩. عبد الرحمن العيسوي: مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث، دار الراتب الجامعية، ١٩٩٧م، ص ١٣)

المفردات والوصول إلى قوانين تحكم تلك المفردات^١. وقد خدمت المنهجية التي أرسى قواعدها علماء الإسلام العلم^٢.

وللطريقة العلمية مقدماتها الفكرية والإيمانية التي كان وجودها شرطاً ضرورياً للتوصل إليها والالتزام بها، ولم تكن هذه المقدمات متوافرة لأية حضارة سابقة أو لاحقة للحضارة الإسلامية، بل كان من حتميات تاريخ العلم أن تجيء الطريقة من المسلمين على وجه الخصوص، لأن الإسلام ذلك الدين الذي يعلي قيمة "الحيدة" ويثبت الأمانة والنزاهة، ولأن العلم الذي دعا إليه الإسلام جاء للفكر والقلب وللعقل والضمير، وأيضاً العلم الذي خاض تجربة تنقية التراث من خلال تمحيص صحة الأحاديث النبوية الشريفة وترتيبها طبقاً لموثقيتها، لذلك فإن تجربة تنقية السنة الشريفة أرسى الشك العلمي ومنهج التحري عن الحقيقة^٣.

لذلك فقد تقيد علماء الإسلام بطرق البحث العلمي، فحين اشتغلوا بالعلوم النقلية ابتدعوا الأساليب التي تضمن سلامة النص وفهمه كما هو واضح في علوم القرآن وعلوم الحديث، وحين اشتغلوا بالعلوم العقلية لم يكتفوا بقراءة الترجمات التي نقلوها بل تعاملوا معها على منهج علمي يقوم على التجربة والملاحظة والقياس وغير ذلك^٤.

وعلى ذلك فهناك العديد من المناهج العلمية التي استخدمها العلماء في أبحاثهم ومنها المنهج التجريبي والذي يعد من أهم المناهج العلمية، فقد جعله المسلمون سبيلاً أساسياً للتوصل للمعارف العلمية، لذلك غلب عليهم المنهج التجريبي فكانوا يجرون تجاربهم في مسائل لم تكن تخطر على بال من سبقوهم، لأنهم اعتبروا أن المنهج التجريبي هو منهج الإسلام، والذي دفعهم إلى ذلك هو القرآن الكريم الذي طالب بالحجة التي تقوم على

١- مصطفى ليبب عبد الغني: الكيمياء عند العرب، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م، ص ٣١.

٢- عبد الستار أبو غدة: رب زدني علماً، منهجية العلم في الإسلام، ص ١١٩.

٣- محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الطبيعية والطب، ص ٣٠.

٤- حسن جبر: أسس الحضارة العربية الإسلامية، ص ٢٧٨.

البرهان للوصول إلى النتائج الصحيحة، تلك النتائج التي تقوم علي الاستقراء والمقارنة والتمحيص. يقول تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^١. وهناك العديد من الآيات التي تتحدث عن المخلوقات ثم تأمر الإنسان بالنظر والتدبر فيها ومعرفة أسرارها وتسخيرها بما يعود بالنفع للإنسان^٢. وهذه الأمثلة دفعت الإنسان للتفكير في تسخير قوي الطبيعة وثرواتها لخدمة الإنسان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^٣.

ذلك كله دفع المسلمين إلى الملاحظة والتأمل وإجراء التجارب، فالتجربة العلمية عندهم هي الأساس العلمي السليم التي تصنع المعرفة، وكان اقتناعهم بأن الأسلوب العقلي المنطقي لا يكفي للنهوض بالعلوم الطبيعية، بل لابد من إجراء التجارب وتسجيل المشاهدات والملاحظات وتجميع البيانات والقرائن^٤. وذلك مع مراعاة الدقة المتناهية، وقد أدى ذلك لوصولهم إلى نظريات واكتشافات جديدة^٥.

أثر علماء الإسلام بطريق غير مباشر علي مفكري وعلماء الغرب، الذين شهدوا بسبق علماء الإسلام إلي ابتداع المنهج التجريبي السليم بكل خطواته ومراحله، يقول "دونالدر.هيل" في ذلك "كل ما وصل إلينا من التراث العلمي والتقني للحضارة الإسلامية يؤكد سبق علمائها إلي إرساء أصول مناهج البحث العلمي السليم، ويسجل فضل هؤلاء العلماء في إثراء المعارف العلمية والتقنية، ودفع عجلتها قدماً نحو التقدم والازدهار. فقد طوروا بتجاربههم وأبحاثهم العلمية ما أخذوه عن الحضارات الأخرى من

^١ - البقرة: (١١١)

^٢ - عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم، ص ٢١. سمية بنت حسن إبراهيم: منزلة العلم في الإسلام، ص ٨٧.

^٣ - الحشر: (٢١)

^٤ - مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة اليونسكو: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص ١٩٢.

^٥ - أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية، ص ٤٢.

مادة علمية شكلوها تشكيلاً جديداً، ولهذا نراهم أحرزوا تقدماً ملحوظاً في كثير من العلوم الطبيعية لم يحرزها غيرهم"^١. وعلي هذا الأساس العلمي سار العلماء المسلمون في العلوم الطبيعية شوطاً كبيراً^٢. وقد حاولت إيضاح ذلك لكل علم علي حدة خلال فصول الرسالة.

من أعظم رواد ذلك المنهج العلمي في مدينة غزة "أبو الريحان البيروني" الذي يعد من أوائل علماء المسلمين الذين اتخذوا البحث والتجربة وسيلة إلى تحصيل المعارف، فكان ممن لا يؤمنون بقاعدة اعتناق الآراء المسلم بها دون تمحيص أو تحقيق، وكان يصر علي ضرورة مراقبة الأمور، فكان يمتحن الأشياء بعقله ويبحث عنها ويخضعها لألوان من التجربة، لذلك تميزت دراسته في مختلف المجالات بأنها دراسة تجريبية تقوم علي أسس ثابتة من البحث والاستقصاء والتجربة الشخصية، فلم يكن يعتمد علي أعمال من سبقوه اعتماداً كلياً بل كان يحقق بنفسه كل معلومة وكل ظاهرة ويضعها موضع التجربة^٣.

فشخصية البيروني شخصية ترفض التقليد وعقليته غير قابلة للتسخير، سار في منهجه العلمي علي أساس أن العلم اليقيني لا يحدث إلا من إحساسات يؤلف بينها العقل علي

^١ - دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا، الكويت، عالم المعرفة، ٢٠٠٤م، ص ٩.

^٢ - زغيريد هونكه: شمس العرب تسطع علي الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، دار الجليل، (د.ت)، ص ٤٠٦. (إن منهاج المسلمين العلمي قام علي التجربة والترصد، أما مجرد درس الكتب والإقتصار علي تكرار رأي المعلم، فهو ما سارت عليه أوروبا في القرون الوسطى، والفرق بين النهجين واضح ولا يمكن تقدير قيمة المسلمين العلمية الا بإظهار هذا الفرق)

^٣ - أحمد مدحت إسلام: علماء العرب والمسلمين وإنجازاتهم العلمية في بناء الحضارة الإنسانية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٩م، ص ١٠٩. زهير حميدان: أعلام الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، ج ٢، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٦م، ص ٢٣٧.

نمط منطقي ويجردها في كليات، فلاستقراء والتجربة والتجريد الذهني هي دعائم بحوثه وهي وسيلته إلى المعرفة الحقيقية^١.

كذلك كان كيانه العقلي مطبوعاً على استبعاد الآراء والتفاسير الخرافية والأسطورية، مما جعله يرفض أفكاراً شائعة. حتى بين العلماء أنفسهم. مثل فكرة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وفضة، كما رفض الخرافة الشائعة التي تقول بأن أعين الأفاعى تسيل حين يقع بصرها على الزمرد، وقد غلبته طبيعته العلمية التجريبية وجعلته يلجأ إلى التجربة ليختبر تلك المقولة، فقام بتطويق الأفاعى بقلائد من الزمرد وفرش سلالها به وراح يحركه أمام أعينها، وهو يقول عن النتيجة في شيء من التهكم "لم يبق إلا تكحيلها به، فما أثر في عينها شيئاً أصلاً إن لم يكن زادها حدة بصر"^٢. وهذه الدويبة المعروفة "بأم الأربعة والأربعين" لم يتأكد أحد من معاصريه من عدد أرجلها، أما "البيروني" فقد فعل ذلك، إذ يقول "عددت أرجل واحدة منها فكانت مائتين وأربعين رجلاً". وهو بذلك يدعو إلى الاستقصاء في البحث ويحذرنا مما سماه كلام التقليد^٣. وقد ظلت هذه الروح العلمية تسرى في كتاباته حتى سن متأخرة بعد السبعين حين وضع مؤلفه "الجماهر في معرفة الجواهر" والذي خالف فيه تماماً ما هو مألوف في كتب التعدين عند المسلمين، وتجاهل كلية وجود أية خواص سحرية للأحجار.

وفي كتابه "القانون المسعودي" يعتمد كثيراً على المنهج الحسى، فهو يلاحظ القمر والشمس وسائر الكواكب ويستعمل حرفياً لفظي "الحس" و"المشاهد"، فعلمنا متشبه بهذا المنهج أيما تشبه فهو يلاحظ ويرصد باستمرار معتمداً في ذلك على آلات دقيقة كرصده لخط النهار بواسطة آلة دقيقة اسمها "المقياس" أو كرصده للكواكب مستعملاً في

١- على الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٣٠٧: ٣١٠.

٢- محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية في العلوم الطبيعية والطب، ص ١٦٠. على الشابي:

الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٣١٢.

٣- التوانسي: أبو الريحان البيروني، ص ٣٥.

ذلك آلات دقيقة أيضًا. وخلاصة القول أن المنهج الحسي لدى البيروني هو منهج هادف ويتميز بالنعمية^١.

هذا وإن كل جهد يبذل في إجراء التجارب وكل وقت يصرف في التفكير والتأليف والعرض. مهما كبر ذلك الجهد أو الوقت. ليس ضائعاً، بل هو جهد موفور، لأنه سيحفظ جهود أخرى ستكرر وقتاً سيضيع، لو لم يجد الإنسان أمامه أصولاً منهجية يستفيد منها في بحثه لأن تلك المنهجية إنما هي تعبير لسبل البحث الوعرة المجهولة^٢. و"البيروني" أدرك حين كان يبتكر ويؤلف ويحلل وينقد مدي جهده الذي أفاد به الثقافة الإسلامية، وحقاً ما قال:-

بجهد شأوت البالغين أنمة	فما اقتبسوا في العلم مثل اقتباسيا
فما بركوا للبحث عند معالم	ولا احتبسوا في عقيدة كاحتباسيا
فسائل بمقداري هنوداً بمشرق	ولا بالغرب من قد قاس مثل قياسيا ^٣

هذا وقد اكسب اعتماد "البيروني" وغيره من علماء مدينة "غزة" على التجربة مؤلفاتهم دقة وإبداعاً وإقبالاً، بحيث لا ينتظر مثل ذلك من باحث تعود درس الحوادث في الكتب فقط.

مما سبق يتضح جلياً أن المنهج العلمي الذي اتبعه علماء مدينة "غزة" كان له أبعد الأثر في التقدم العلمي الذي يجني العالم ثماره الآن بعد الإضافة إليه وتطويره، وذلك لأنهم وجهوا البحث إلى الوجهة الصحيحة من حيث إقامته على التجارب والاختبارات واستقراء النظريات، وما إلى ذلك من خطوات كانت تشكل في مجموعها تحولاً عظيماً في

^١ - عبد القادر بشته: المنهج العلمي في الإسلام (البيروني وابن رشد نموذجاً)، تونس، دار المعارف، ص ١٦: ٢٢.

^٢ - عبد الستار أبو غدة: رب زدني علماً، منهجية العلم في الإسلام، ص ١١٩.

^٣ - علي الشابي: المرجع نفسه، ص ٣٠٣.

تاريخ العلم، فقد استوعب الغرب تراثهم وتأثر باتجاههم التجريبي الذي كان نواة لتطور العلم والتكنولوجيا في العصر الحديث.

الموسوعية

إذا نظرنا إلى علماء مدينة "غزة" في تلك الفترة نجد أن نظام الموسوعية هو الغالب عليهم، فكان الواحد منهم في حد ذاته موسوعة علمية متكاملة، هذا علي الرغم من احترامهم لنظام التخصص، إلا أنهم أطلقوا لعقولهم العنان تسبح في بحور العلم وتسرح في مروج المعرفة، حيث اهتم هؤلاء العلماء بالتوغل في المعارف الكونية، والجمع بين التعمق الفقهي والتخصص الشرعي وبين التطلع في الأمور الكونية، حتي أننا لنجد هؤلاء الموسوعيين ملأوا الدنيا علما، وأثروها بمؤلفاتهم في شتى فروع العلم والبحث^١.

وما يلفت النظر إلي عظمة هؤلاء العلماء هو غزارة الإنتاج العلمي لديهم، فكان لكل واحد منهم عشرات بل مئات المؤلفات في مختلف المجالات، فنجد العالم منهم يكتب في الفقه والتفسير والفلسفة بجانب كتابته في الطب والكيمياء والرياضيات، فمن أين أتوا بكل هذه الطاقة والقدرة لصياغة تلك المؤلفات؟! وكيف اتسعت حياة العالم منهم للإحاطة بهذا الكم الهائل من المعرفة؟!

ربما يرجع ذلك إلي الدين الإسلامي، حيث كان الاتجاه السائد فيه هو تشجيع تنوع العلوم التي يجب دراستها^٢. كما كانوا علي درجة عالية من الإخلاص العلمي والإصرار علي تلقي المعرفة والحرص علي تحصيل العلوم من شتى مصادرها، وكان الإيمان رائدهم، تغذيم التقوي وتمدهم بقوة خارقة تعينهم علي التفاني في سبيل العلم وإخراج لآلئ منه

^١ - كارم السيد غنيم: ملامح من حضارتنا العلمية وأعلامها المسلمين، ص ٩٠.

^٢ - جورج المقدسي: نشأة الكليات، ص ٩٨.

للناس على مر الأزمان^١. كما أنهم أدركوا أن تكامل شخصية المسلم رهن بتكامل معرفته وبالتنوع في جوانب حضارته، فالعلوم عندهم كلها ثمرات من شجرة واحدة، يجب تذوق كل هذه الثمرات في آن واحد^٢.

ذلك كله كان دافعاً لهم لتنويع معارفهم تنوعاً واسعاً، فلم يكتفوا بالاختلاف إلى حلقة واحدة من حلقات العلم، بل ترددوا على جميع الحلقات آخذين بطرف من كل نوع من أنواع المعرفة^٣، فتميزوا جميعاً فيما يمكن أن نسميه بالثقافة العامة، وبالرغم من أن التخصص الدقيق يعد أمراً مطلوباً في العلم، إلا إن الثقافة الواسعة مطلوبة هي الأخرى، فلم يكن العالم عالماً بمعني الكلمة إلا إذا كان واسع الاطلاع تشمل دائرة معارفه أكثر من مجال^٤. لذلك وجب على كل طالب علم ألا يدع فناً من فنون العلم أو نوعاً من أنواعه، فالعلوم كلها مترابطة بعضها ببعض، وقيل في ذلك:-

أحرص علي جمع العلوم مجاهداً
ولا تموتن بعلم واحد كسلاً
النحلة لما رعت من كل فاكهة
أبدت لنا الجوهرين الشمع والعسلا
الشمع في الليل نور يستضاء به
والشهد يبرى بإذن الباري العللا

ومن أهم علماء مدينة "غزة" الموسوعيين "أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني" الفقيه المتكلم، من أتباع المذهب الأشعري (ت ٤٠٦هـ / ١٠١٥م) كان معلماً

^١ - قدرى حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ط ٣، القاهرة، دارالقلم، ١٩٦٣م، ص ١٣٩. كارم السيد غنيم: المرجع نفسه والصفحة.

^٢ - محمد حسين هيكل: إسلاميات، لندن، مودى جرافيك للنشر، ص ٢، ٣.

^٣ - عز الدين فراج: فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية، القاهرة، دار الفكر العربي، ٢٠٠٢م، ص ١٩. شوقي ضيف: عالمية الإسلام، ص ٦٢.

^٤ - أحمد مدحت إسلام: علماء العرب والمسلمين، ص ١١.

^٥ - طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة، ج ١، ص ٢٥.

^٦ - السبكي: طبقات الشافعية، ج ٤، ص ١٢٩. ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٤٠.

للأدب والفلسفة، وكان ذو ثقافة موسوعية، فتنوعت علومه وتعددت فنونه، فهو إمامًا في الفقه وعالمًا بالأصول، ومتبحرًا في علم الكلام، وضليعًا في الوعظ وخبيرًا بالنحو، وعارفًا بالأدب^١.

"أبو المكارم أحمشاذ بن عبد السلام بن محمود الغزنوي الحنفي" (ت ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م)، أحد فحول العلماء، عده علماء عصره بحر يتموج وفجر يتبلج، كان مفسرًا وواعظًا وعارفًا بالتوحيد والمسائل الخلافية^٢. وأيضًا "غالي بن إبراهيم ناصر الدين" الملقب بتاج الشريعة ونظام الإسلام الغزنوي (ت ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م) كان إمامًا في التفسير والفقه والأصول والجدل^٣.

ويعد "أبو الريحان البيروني" من أعظم العلماء الموسوعيين في مدينة غزنة، كان عقلاً متبحرًا ومبدعًا متسمًا بالموسوعية، تخصص في الكثير من العلوم^٤، وصنف فيها حتي وصلت مؤلفاته حوالي مائة وستة وسبعين كتابًا، تناول فيها الرياضيات والفلك والتاريخ والكيمياء وغيرها من العلوم، كتب في التاريخ بعقلية رياضية، وتناول الفلك بروح المطلق علي تاريخه وتطوره، وألف في الجغرافيا علي ضوء تجاربه المتكررة، كذلك كتب في الطب والصيدلة والطبيعات والتقاويم وتاريخ الأديان والمعتقدات والمذاهب والتنجيم، فلم يُقَمِّم حواجز بين العلوم المختلفة^٥. كما أنه لم يتخل في ذات الوقت عن الدقة والعمق في

^١ - ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٣، ص ١٨٣: ١٨٨.

^٢ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ٣٣٩. عماد الدين الصفهاني: خريدة القصر، ج ٢، ص ١٣٧. القرشي: الجواهر المضيئة، ج ١، ص ٣٥٩. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٨، ص ١٠٢.

^٣ - ابن قطلوبغا: تاج التراجم في طبقات الحنفية، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٢ م، ص ٤٩. الصفدي: المصدر نفسه، ج ١٦، ص ٣٢٧. علي أكبر دهخدا: لغت نامه، شماره، طهران، سال ١٣٣٥ خورشیدی، ج ٢٧، ص ٢١٤.

^٤ - علي الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٢٩٦. ريسلر: الحضارة العربية، ص ١٨٣.

^٥ - علي الشابي: المرجع نفسه، ص ٣٠٤.

كل علم ومبحث اشتغل وأنتج فيه^١ ففضى جل عمره في الدراسة والكتابة وفي البحث والتأليف، وبذلك يمكن اعتباره مثلاً يحتذى به في الجِد والاجتهاد والمثابرة وقوة الإرادة. وهناك العديد من الأمثلة علي علماء "غزة" الموسوعيين والذين كان لهم إسهاماتهم في مضمار المعرفة الإنسانية وسيتم الحديث عنهم في حينه.

^١ - محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية، ص ١٥٢.

التسامح الديني وحرية الرأي

➤ التسامح الديني

قامت الحضارة الإسلامية على أساس من السماحة الدينية واحترامها لكل الأديان الأخرى، واعترافها بحق أصحابها في أن يمارسوا طقوسهم الدينية كما يريدون، فالحرية التي كفلها الإسلام لأهل الأرض لم يعرف لها نظير في تاريخ العلم، ولم يحدث أن أنفرد دين بالسلطة ومنح مخالفه في العقيدة كل أسباب الحرية كما فعل الإسلام^١. وأكبر دليل وأعمق تقدير لقيمة الحرية الدينية قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^٢.

هذا التسامح الديني ساعد على جمع مظاهر الحضارات القديمة لتكون بداية للحضارة الإسلامية، فقد أحدث الإسلام امتزاجاً قوياً بين المسلمين وغيرهم، وحدث نوع من التعايش الفكري بينهم، لذلك قدم أهل البلاد المفتوحة للمسلمين كل ما يملكون من كنوز العلوم وذخائر الفلسفة بمنتهي الصدق والإخلاص، لا يكتفون منه شيئاً، لأنهم شعروا تجاه المسلمين وحكامهم بأخوة كريمة حتى نراهم يسرعون بالاستجابة إلى رغبة إخوانهم المسلمين في التعرف على العلوم كلها.

كما أن حضارات تلك الشعوب كانت معرضة للانقراض، ولم يعد بالإمكان وقف انهيارها خاصة وقد عمل رجال الدين والكهنة المسيحيون على مقاومة تلك الحضارات غير المسيحية، ولولا ما قام به المسلمون من إحياء لذلك التراث لأدركت تلك الحضارات نهايتها الحتمية، ولولا طابع التسامح الديني الذي ظهر في تلك الآونة ما أخذت تلك العلوم طريقها إلى النور^٣.

ضرب سلاطين الدولة الغزنوية أمثلة كثيرة بتقريبهم العلماء والمفكرين من كل الأجناس والملل، من غير تمييز بين دين وآخر، "فابن الخَمَّار" المسيحي الديانة عاش في

^١ - عز الدين فراج: فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، ص ٢٨٤.

^٢ - الكهف: (٢٩)

^٣ - رشيد الجميلي: حركة الترجمة، ص ٣٢٦.

مدينة "غزة" إلى أن توفي بها، وكان علي صلة طيبة بالسلطان "محمود الغزنوي"، فكان طبيبه الخاص، وقد عرض السلطان "محمود" عليه الإسلام فأبى، ولكنه لم يصبه أذى من جراء رفضه دخول الإسلام حتي هداه الله إليه بدراسته للعقيدة الإسلامية بدون أي ضغط خارجي عليه. كما كان "ابن الخمار" علي صلة طيبة بعلماء مدينة "غزة"^١، لذلك يعتبر "ابن الخمار" نموذجاً لاتفاق المفكرين من الديانات المختلفة في العديد من الآراء، وذلك نتيجة للمعايشة السلمية في المجال الفكري بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى.

إن هؤلاء العلماء من غير المسلمين . يهود أو نصارى . كانوا جزءاً من الحضارة الإسلامية، لأنهم نبغوا في ظل الحكم الإسلامي ونشأوا بين أحضان مجتمع إسلامي يؤمن بحرية العقيدة وبالمساواة، ولولا ما وفره الإسلام لهؤلاء الذميين من حرية وتسامح لما تهيأ لهم المناخ المناسب الذي جعل منهم علماء بارزين.

اتسم علماء "غزة" بالتسامح الديني، فلم يأنفوا من التعلم من علماء الأديان المخالفة للإسلام، ومن ذلك حرص "البيروني" علي التعلم من أستاذه الكبير "أبى سهل المسيحي" وهو طبيب فلكي مسيحي يعتبره الكثيرون أستاذ "ابن سينا" في الطب، فقد تأثر البيروني إلى حد كبير بهذا العالم الجليل وخاصةً في تلك النواحي الحسية من المنهج العلمي الذي برع فيه البيروني، وخاصة جانب الاختبار والتجريب والذي كان يمارس على نطاق واسع في النواحي الطبية^٢.

أما تلمذته على مفكرى اليونان والهنود فنجدها واضحة في كل رسالة أو مؤلف له، حيث أورد العديد من أسمائهم في كتبه، ورجع في الكثير من المسائل العلمية التي تعرض لها إلى المفكرين والفلاسفة الهنود واليونان بغض النظر عن انتمائاتهم الدينية والمذهبية، ومن هؤلاء المفكرين أفلاطون، وأرسطو، وأرشميدس.

^١ - إبراهيم تركي: ابن الخمار فيلسوف من القرن الرابع الهجرى، ص ٣٧. استاذ خليل: سلطنت غزنويان، ص ٣٥٢.

^٢ - بركات محمد مراد: البيروني فيلسوفاً، ص ١٢.

ويتضح تسامحه الديني وعدم تعصبه من خلال كتابه "تحقيق ما للهند" فهذا الكتاب ذو طابع فريد بين الكتب الإسلامية، لما اتسم به من الموضوعية وعدم التحيز الديني، فلم يمنعه إسلامه من تقدير الفلاسفة البوذيين واستحسان الكثير من نظرياتهم في العلوم المختلفة، وقد بلغ من انصافه وعدم تحيزه أن اعتبره كثير من المسلمين مغالياً، فالقارئ حين يقرأ كثير من صفحاته في تمجيد هؤلاء ونظرياتهم لا يلحظ أنه مسلم^١.

كل ما سبق يعني أن الدين لم يكن عائقاً في سبيل المعرفة، وأن العلماء المسلمين استطاعوا احتواء فكر غير المسلمين دون أن يتسم ذلك الفكر بالاختلاف، وهذا يعني أنهم كانوا على درجة عالية من التفتح الأمر الذي يعد مظهرًا من مظاهر قوة وازدهار الثقافة الإسلامية.

➤ حرية الرأي^٢

جاءت التعاليم الإسلامية تشرع لحرية الرأي لا على أساس أنها حق مباح من حقوق المسلم فحسب بل لأنها مقصد ضروري من مقاصد الشريعة، فالإسلام الذي أرسى

^١ - عبد الحليم محمود وعثمان عبد المنعم: الفلسفة الهندية مع مقارنة بفلسفة اليونان والتصوف الإسلامي، ص ١٥. بركات محمد مراد: البيروني فيلسوفاً، ص ١٣.

^٢ - المقصود بالحرية هنا هي حرية الإنسان في طرق النظر العقلي وأساليبه دون أن تفرض عليه من الآخرين معطيات وأدوات من شأنها أن تؤدي به إلى الخطأ، أو يلزم بسلوك طرق معينة من شأنها أن توصله إلى نتيجة مبتغاة سلفاً حقاً كانت أو باطلاً، فإذا كان شئ من ذلك فإنه يعتبر وجهًا من وجوه السلب لحرية الرأي لما فيه من توجيه مسبق من الآخرين إلى رأي معين قد لا يصل إليه الناظر لو ترك حراً في النظر، بل قد يصل إلى ضده. كما أنها أيضاً حرية الإنسان في الإعلان عن الرأي الذي توصل إليه بالنظر والبحث، وإشاعته بين الناس والمدافعة عنه والإقناع به، ولعل هذا هو الوجه الأهم في حرية الرأي. ومن ثم فإن الحرية فيه تعني أن يكون طريقه إلى الناس معبداً بإنعدام كل العقبات التي تعيق التعبير عنه من قبل صاحبه أو سيرورته بين الآخرين، أو وسائل دعمه والإقناع به، وإن وقع شئ من ذلك فهو يعتبر تقييداً لحرية الرأي. (عبد المجيد النجار: دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، الولايات المتحدة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٢م، ص ٤٣)

دعائم حقوق الإنسان هو أول من دعا إلى حرية الفكر وحرية الرأي. فالدعوة الإسلامية قامت علي أساس الحرية، فنجد في القرآن الكريم تشريع لحرية الرأي تضمنه قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَأَوْمَرَ بِالتَّقْوَى﴾^١. فالإسلام إذن وهو دين الفكر والعقل والعلم جاءت دعوته في جوهرها دعوة إلى الحرية وعدم الإكراه في أى شيئاً كان، لأنه يقدر الرشد الفكري واليقظة العقلية التي تمكن الإنسان من التقدم والازدهار.

على ذلك فقد منح الإسلام كل فرد الحق في إبداء رأيه بأى طريق شاء، وجعل من إظهار صفات المؤمنين الجهر بما يرون من الحق دون خوف^٢، لذلك نجد العلماء المسلمين وبدافع من دينهم الخفيف وقرآنهم المجيد قد تحرروا من الموجهات الذاتية التي توجه عقولهم إلى النتائج المسبقة مثل موروث العادة والتقليد دون النظر والتمحيص، وتحرروا أيضًا من الموجهات الخارجية التي تفرض عليهم معطيات معينة أو أسلوبًا معينًا في البحث، لذلك انطلقوا بغير حدود يجمعون من المعطيات المختلفة كل ما من شأنه أن ينير سبيل الحق، ويتخذوا من الطرق والأساليب كل ما من شأنه أن يوصل إلى العلم، فالعلم لا ينمو إلا في إطار الحرية.

فإذا ما أتاحت فرص الإعلان عن الرأي فإن ذلك سيكون من شأنه أن يحدث مناخًا حوارياً تتقابل فيه الآراء وتتصارع فيه الحجج، فتتكشف المعطيات والطرق التي كانت مستورة بستار الغفلة أو محجوبة بسبب من الأسباب، يضاف ذلك كله إلى ما جمعه العقل واعتمد عليه في النظر، وربما أدى ذلك إلى تعديل نتيجة الأبحاث وربما أدى وضع نظريات جديدة في مقابل ذلك^٣، وبالتأمل الجيد في التاريخ الفكري للمسلمين يتبين أنه كلما

١ - العلق: (٩: ١٢)

٢ - عز الدين فراخ: فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، ص ٢٨٢.

٣ - عبد المجيد النجار: دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، ص ٤٩.

تقيدت حرية الرأي في زمان أو مكان أو بين فئة معينة أفضي ذلك إلى ضيق خائق في مساحة المعطيات والسبل التي تتأسس عليها المعارف والأحكام^١.

ترتب على ذلك أن أصبح لكل فرد الحق في تقرير ما يراه بصدد ظواهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات والإنسان، واعتناق ما يقتنع بصحته من قوانين الطبيعة، كذلك إذا رجعنا إلى الأدب شعره ونثره وإلى الفنون التي ازدهرت على أيدي المسلمين الذين عاشوا في المدن الإسلامية لرأينا نهضة في التفكير، فلم يكن لمدينة أن تزدهر ازدهاراً حقيقياً في غير ظلال الحرية العقلية^٢. ومن الجدير بالذكر أنه إذا كانت الحرية قد تركت مطلقة في مجال العلوم العقلية والفقهية، إلا أنها إذا تطرقت لمجال العقائد فنلاحظ تدخل الحكام ووقوع العقاب علي من يجرؤ علي ذلك^٣.

وقد غلب علي الدولة الغزنوية فتح أبواب الفكر لكل من يلجها، فتركت الحريات في التأليف والرد علي المؤلفين، وبدا هذا واضحاً في كثرة المؤلفات التي دونت في بلاط سلاطين الدولة الغزنوية، وفي ازدهار العلوم ازدهاراً سريعاً، حتي صارت فترة حكمهم من أزهى الفترات العلمية في التاريخ الإسلامي، وذلك لتوفير الحرية الفكرية والحرية القلمية، والتي كانت مقيدة في أماكن أخرى وعوقب أصحابها بالموت^٤.

في هذا الجو من الحريات تم ترسيخ تقاليد المناقشة والمواجهة، وتم إشاعة روح التواصل الحضاري، فنشأ نوع من الحوار الداخلي بين الفرق والمذاهب الإسلامية، والخارجي مع أهل الثقافات والأديان الأخرى، فحدث نوع من تبادل الخبرات والتجارب، ذلك ما صاغ عقول المسلمين على وجه العموم علي هيئة من النفاذ إلى العلل

^١ - المرجع السابق، ص ٥٢.

^٢ - محمد حسين هيكل: إسلاميات، ص ١٤، ١٥.

^٣ - حسن جبر: أسس الحضارة العربية الإسلامية، ص ٢٨٣.

^٤ - في نفس الوقت كانت أوروبا في ظلام دامس، وكان رجال الدين المسيحي وقتئذٍ يحاكمون العلماء، ويضطهدون كل صاحب رأي جديد، بل وصل الأمر إلي محاكمة وتعذيب بل وقتل كل من يتبنى آراءً أو أفكاراً تخالف آراءهم أو أفكارهم. عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم، ص ١٣٨.

والأسباب المشتركة للظواهر المختلفة، ومن المؤلفات المنجزات الفكرية والعملية لتوجيهها نحو خدمة الدين وهي الغاية الموحدة. وقد بدا ذلك جلياً في مجال العلوم علي سبيل المثال في ابتداع علوم عديدة مثل علم أصول الفقه وعلم النقد الشعري^١.

كذلك كان حرية الرأي التي شاعت بين المسلمين سبباً في تربية العقلية الإسلامية علي صفة من النقدية التي ظهرت جلية في التراث الفقهي والتراث المذهبي والتراث الفلسفي، حيث كانت الرؤي والأحكام فيها تصدر عن مقارنات واسعة في مناخ من الحوار الحر. كما أنها أوجدت الصفات المنهجية المشتركة بين المسلمين وبعضهم البعض، تلك الصفات التي أثمرت وحدة فكرية بينهم، ومن خلال تلك الوحدة صيغت الحياة الإسلامية بأكملها في وجهها النظري المتمثل في العلوم، وفي وجهها العملي المتمثل في الوجوه الحضارية العملية المختلفة فظلت بذلك كالرابطة التي تربط العالم الإسلامي ببعضه^٢.

وعلي النقيض ففي الفترات التي جمدت فيها حرية الرأي التي آل فيها الأمر إلي التعصب المذهبي الرافض للرأي المقابل، وضائق حرية الاجتهاد وتجمدت أحياناً، وجهت سلطة الدولة الفكر توجيهاً مذهبياً ينطوي علي الحجر علي سائر المذاهب والبقاء علي مذهب واحد، تولد عن ذلك الفرقة والجمود، لأن حرية الرأي كلما توفرت بين المسلمين أثمرت الوحدة، وكلما غابت أو ضعفت أثمرت الفرقة، لأن الاختلاف هو التعدد وهو الحياة، وممارسة الرأي الحر مع الالتزام بالقيم والثوابت مقدرة لها وزنها، وتقبل الرأي الآخر ثقافة لها قدرها.

ثروات بلاد الهند

امتد الغزنويون بدولتهم إلي مختلف أجزاء الهند التي اشتهرت بكثرة ثرواتها وأصنامها الذهبية والفضية^٣، كما اشتهرت بكثرة مناجم الذهب الخالص^١، ترتب علي ذلك أن أقام

١- عبد المجيد النجار: المرجع نفسه، ص ٥٥.

٢- عبد المجيد النجار: دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، ص ٦١ : ٦٥.

٣- عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٧٧.

الغزنويون دولتهم في مدينة "غزنة" علي وافر من الثراء والترف والذي أغرق المدينة وجعلها من أغنى دول الشرق آنذاك^٢. تلك الثروات أودعها السلطان "محمود" في العديد من القلاع والأماكن المختلفة ومنها قلعة منديش، وبای لمان، ومرنج، وبيان كوت^٣.

أخذت تلك الثروات التي غنمها سلاطين "غزنة" صورًا ثلاث إما غنائم فتوحاتهم الكثيرة في الهند، وإما هدايا متنوعة من حكامها، وإما جزية ترسل إلي خزانة "غزنة" سنويًا مقابل عقد صلح بين الطرفين، وتفصيل تلك الثروات كالتالي:.

أ - غنائم الفتوحات

نتج عن غزو الأمير "سبكتكين" (٣٦٦: ٣٨٧هـ / ٩٩٧: ٩٧٦م) للهند هزيمته لحاكمها "جيبال" واستيلائه علي غنائم لا تحصى من الأسرى والأفيال والأموال^٤. أما ابنه السلطان "محمود" (٤٢١: ٣٨٨هـ / ١٠٣٠: ٩٩٨م) فحقق انتصارات باهرة وفتوحات لم يسبقه إليها غيره، فكل غزوة غزاها رجع إلي عاصمة ملكه علي جبينه أكلیل النصر، وبين يديه غنائم وافرة، حتي امتلأت خزائنه بالذهب والفضة والجواهر الثمينة^٥، والتي أسهب في وصفها

Bosworth: The Development of Persian Culture under the Early Ghaznavids, p3٧.

١ - ميرخواند: روضة الصفا، ص ١٥٤.

٢ - ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٤٧. لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٣٨٧. ذبيح الله صفا: خلاصة تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران تا بايان عهد صفوى، طهران، (د.ت)، ص ١٥٥.

Donald Wilber: Iran Past and Present, p٤١.

٣ - طلعت محمد أبو فرحة: مسعود سعد سلمان عصره وبيئته وشعره، رسالة دكتوراة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٦٨م، ص ١٠٩.

٤ - النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٣٢. محمد قاسم هندوشاه: تاريخ فرشته، ص ٢٠. الهروى: طبقات أكبرى، ج ١، ص ٢٥. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ١٠. أحمد على كهزاد: تاريخ أفغانستان، جلد دوم، ٥٦٧.

٥ - اسفزاری: روضات الجنات في أوصاف مدينة هرات، ص ٣٦٤. عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند، ص ٨٢. عبد العظيم رضایی: تاريخ ده هزار ساله ایران، ج ٣، ص ٣٣.

كلاً من العتبي والبيروني، فإلى جانب نفاستها لا يكاد يحصرها الخيال، وقد قال السلطان "محمود" نفسه حين أخبره المنجمون بما تبقى له من عمره "إن قلاعي مشحونة بالأموال بما لو قسم علي أيام تلك السنة ما أخل بها انفاق مرتب أو مسرف فيه"^١.

ومن تلك الغزوات والتي غنم منها غنائم كثيرة، الغزوة التي هزم فيها راجا الهند "جيبال"، وغنم منه غنائم وجواهر كثيرة، منها قلادة من الجواهر الثمين أخذت من عنق جيبال قدرت قيمتها بحوالي مائة وثمانين ألف دينار وقلائد أخرى بنفس القيمة^٢. وفي سنة (٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) هزم حاكم بهاطية "بجيرا" واستولى على مائتين وثمانين فيلاً والعديد من الغنائم^٣.

وخلال سنتي (٣٩٧هـ / ١٠٠٦م)، (٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) غزا السلطان "محمود" الهند وفتح قلاعاً كثيرة، منها قلعة "بهيم نغر"، وفيها صنم الهنود الأعظم، وكان راجات الهند يرسلون إليه النقود والجواهر النفيسة، ولذا فقد جمع السلطان "محمود" من تلك القلعة كميات كبيرة من الذهب والفضة والمجوهرات التي لا تتسع لها خزانة أي ملك، فكان وزن الصنم وحده مليون مثقال، وضعه السلطان على عتبة مسجد "غزنة" الذي طعم أبوابه بالذهب والفضة بدلاً من الحديد^٤، وأخذ من الدراهم سبعين ألف درهم^٥، ومن

G. H. Rawlinson: India, A Short Cultural History, pp ٢٠٧, ٢٠٩.

^١ - على الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٣٧.

^٢ - الكرديزي: زين الأخبار، ص ٢٨٥. محمد قاسم هندوشاه: تاريخ فرشته، ص ٢٤. بداوني: منتخب التواريخ، ج ١، ص ١١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٥٤. "قدرها ابن كثير بمائتي ألف دينار".

^٣ - الكرديزي: المصدر نفسه، ص ٢٨٦. محمد قاسم هندوشاه: المصدر نفسه والصفحة. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٦٠.

^٤ - العتبي: تاريخ اليميني، ج ٢، ص ٩٩. ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٤٨. استاد خليلي: المرجع نفسه، ص ٦٢.

^٥ - النويري: نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٤٤، ٤٥. محمد قاسم هندوشاه: المصدر نفسه، ص ٢٦.

^٦ - المستوفي القزويني: تاريخ كزيده، ص ٣٧.

أواني الذهب والفضة أخذ مائتين من الذهب وألفين من الفضة وعشرين من المجوهرات^٢، وكان في القلعة بيت مملوء بالفضة طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه خمسة عشر ذراعاً، فأخذ جميع ما فيه^٣، وبرجوعه إلى "غزة" أقام حفلاً عظيماً، وأمر بمد البساط بين قصره ونثر هذه الدرر واليواقيت وغيرها من المجوهرات عليه حتي تعجب رسل الملوك مما رأوه، وقال رسل "طغان خان" ملك التركستان: "هذه الأنواع لا تحصها إلا الظنون، ولا تبلغ خزانة قارون عشرها"^٤.

وفي سنة (٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م) استطاع السلطان "محمود" هزيمة جيوش الهند، وغنم ما لا يمكن حصره من كنوز الهند^٥، ورجع إلى "غزة" ووضع في بلاطه عدة عروش من الذهب والفضة، وأمر بعرض الأموال في الخلاء ليراها رعيته^٦. وفي غزوته على "تهانسير"، هدم معبدها العتيق، وغنم منه ياقوتاً بلغ وزنه أربعمائة وخمسين مثقالاً هذا غير الغنائم الأخرى، وعاد ظافراً إلى "غزة"^٧. وفي سنة (٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م) استولي علي معبد "متهرا" الذي يحتوي علي خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر التي بلغ وزنها ستمائة

١- ابن الأثير: المصدر نفسه والجزء والصفحة. التويري: المصدر نفسه والجزء والصفحة. خواندمير: حبيب السير في أخبار أفراد البشر، طهران، كتاب خانه خيام، ١٣٣٣ ش، ص ٣٧٨. (وقد ذكر "البيروني" أنه أخذ تسعين ألف ألف درهم شاهية، وفي ذلك مبالغة كبيرة ولذلك نرجح رأي "خواندمير" بأنه أخذ سبعين ألف درهم)

٢- محمد قاسم هندوشاه: المصدر نفسه، ص ٢٦ (المن: وحدة وزن تعادل ٣ كجم، ووزنه الشرعى يعادل ١٨٠ مثقالاً. عبد الوهاب علوب: فرهنگ زبان فارسی واعد، المصرية العالمية للنشر، ١٩٩٦ م، ص ٣٨٢)

٣- ابن الأثير: المصدر نفسه والجزء، ص ٤٩. ابن كثير: المصدر نفسه والجزء، ص ٣٦٣.

٤- ميرخواند: روضة الصفا، ص ١٤.

٥- حامد عبد القادر: الإسلام ظهوره وانتشاره في العالم، القاهرة، نهضة مصر، ١٩٥٦ م، ص ٢٦٣.

٦- الكرديزي: المصدر نفسه، ص ٢٩٠. الهروي: طبقات أكبري، ج ١، ص ٢٧.

٧- الكرديزي: المصدر نفسه والصفحة. محمد قاسم هندوشاه: المصدر نفسه، ص ٢٧، ٢٨.

وسبعون ألف وثلاثمائة مثقال^١، أما الأصنام الفضية فقد بلغت نحو مائتي صنم، فأخذ السلطان جميع ذلك^٢.

وغنم من معبد "موترا" الشهير الواقع علي نهر الجانج، الكثير من النفائس من بينها صنم ذهبي خالص^٣، وعند عبوره نهر الجانج وجد قافلة تزيد علي ألف جمل فغنمها، وتقابل مع الراجا "تروجيتال" وهزمه، وغنم أموالاً وجواهرًا كثيرة وما يزيد علي مائتي فيل^٤، ثم توجه ناحية "قنوج"، وفي الطريق مر علي مدينة بها العديد من الغرائب والعجائب، من ذلك ألف قصر مشيد من أحجار الرخام والمرمر بلغ من إعجاب السلطان "محمود" بهم أنه ذكر أنه لن يستطيع بناء مثلهم ولو أنفق ملايين الدنانير وعاش مائتي عام واشترك فيهم أمهر البنائين^٥، وهذه القصور تضم ألف صنم من الذهب، كل صنم يقارب مائة ألف دينار، وأصنام من الفضة تزيد علي الألف صنم^٦، وأيضًا أصنام من الذهب الأحمر، في محجر عين كل صنم ياقوتتان، كل واحدة قيمتها تصل إلي خمسين ألف دينار^٧، وعلي صنم آخر قطعة ياقوت أزرق وزنها أربعمائة مثقال ذهب^٨، بالإضافة إلي فيل

١- المثقال مادته ثقل، وهو وحدة من الموازين تعادل وزن مقداره درهم وثلاثة أسباع الدرهم، والجمع مثاقيل، وهو وحدة الوزن والمعاملة من الذهب، ويعدل سبعة أثمان الدينار، والدينار يعدل ستة مثاقيل. (معجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص ١٠٣. علي جمعة: المكايل والموازين الشرعية، القاهرة، دار الرسالة، ٢٠٠٢م، ص ١٤)

٢- النويري: نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٥١، ٥٢. محمد حبيب أحمد: بين الهند والباكستان، ص ٤٣.

٣- عبد العظيم رضائي: تاريخ ده هزار ساله إيران، ج ٣، ص ٣٤. عباس إقبال: تاريخ إيران، ص ١٧٨.

٤- النويري: المصدر نفسه والجزء، ص ٥٨: ٦٠.

٥- خواندمير: حبيب السير، ج ٢، ص ٣٨١. ميرخواند: روضة الصفا، ص ١٥٠. الهروي: طبقات أكبري، ج ١، ص ٣٠. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٧٠.

٦- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٩. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٧، ص ٢٩٢، ٢٩٣. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٢٨، ص ٣٣.

٧- G. H. Rawlinson: India, A Short Cultural History, p ٢٠٧.

٨- خواندمير: المصدر نفسه والجزء والصفحة. ميرخواند: المصدر نفسه والصفحة.

ضخم كان السلطان يتمني شراءه بأي ثمن^١. وعند وصوله إلى "غزنة" أحصى غنائم غزوة "قنوج" فوجدها عشرين ألف دينار وملايين الدراهم وخمسين ألف عبد ومملوك وثلاثمائة وخمسين فيلاً غير الجواهر والنفائس^٢، حتى قيل أنه قسم على جنوده. وعددهم مائة ألف. الذهب والفضة بالكيل^٣.

ومن أشهر غزوات السلطان "محمود" غزوة سنة (٤١٦هـ / ١٠٢٥م) والتي توجه فيها لفتح معبد "سومنات" الشهير. أحد النماذج الرفيعة لفن العمارة الهندية^٤. هذا المعبد كان مبنياً على ستة وخمسين عموداً من الساج المصفح بالرصا ص أو بصفائح الذهب المرصعة بالأحجار الكريمة. أما صنم سومنات نفسه فهو من الحجر، طوله خمسة أذرع، موضوع في حجرة تضيئها قناديل من الجواهر، وعنده سلسلة ذهبية وزنها مائتا من، وخزنته مملوءة بالعديد من الأصنام الذهبية والفضية^٥، ويقدر ما حمله السلطان من معبد "سومنات" ما يزيد على عشرين مليون دينار^٦.

أما بالنسبة للسلطان "مسعود" (٤٢١: ٤٣٢هـ / ١٠٣٠: ١٠٤٠م) فقد جلبت عليه فتوحاته في الهند أموالاً كثيرة^٧. توجه سنة (٤٢٤هـ / ١٠٣٢م) إلى الهند، وفتح قلعة

^١ - الكرديزي: زين الأخيار، ص ٢٩٦. بداوني: منتخب التواريخ، ج ١، ص ١٥.

^٢ - محمد قاسم هندوشاه: تاريخ فرشته، ص ٣٠. الهروي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.

^٣ - ابن كثير: المصدر نفسه والجزء والصفحة.

^٤ - عباس إقبال: المرجع نفسه، ص ١٧٨، ١٧٩.

^٥ - ابن كثير: المصدر نفسه والجزء، ص ٢٥. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٧٩. عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند، ص ٩٠، ٩١. استاد خليلي: المرجع نفسه، ص ٨٦، ٨٩.

^٦ - خواندمير: المصدر نفسه والجزء، ص ٣٨٣. عبد العظيم رضاى: تاريخ ده هزار ساله إيران، ج ٣، ص ٣٤.

^٧ - Percy Sykes: A History of Persia, p29.

"سرستي". تقع علي طريق كشمير. وعاد إلي "غزة" محملاً بالغنائم الكثيرة^١. وفي سنة (٤٢٦ هـ / ١٠٣٤م) بلغت غنائمه من الهند ما يقارب ثلاثين مليون درهم^٢. كما قام بفتح قلعة "هانسي". تقع جنوب شرق البنجاب. سنة (٤٢٩ هـ / ١٠٣٧م) وعاد إلي "غزة" كأبيه محملاً بالغنائم مجللاً بالفخر^٣.

أما السلطان "إبراهيم بن مسعود" (٤٥١: ٤٩٢ هـ / ١٠٥٩: ١٠٩٨م) فقد توجه إلى الهند سنة (٤٥١ هـ / ١٠٥٩م)، وفتح عددًا من القلاع وعاد إلي "غزة" بالغنائم الكثيرة؛ التي استخدمها كغيره في تزيين مملكته، فهذا "أبو الحسن الطبري" الفقيه الملقب "بالكيا الهراس" يصف ما شاهده في "غزة" فيقول: "أرسلني السلطان "بركياروق" إليه. السلطان إبراهيم. فرأيت في مملكته ما لا يتأتى وصفه، فدخلت عليه وهو جالس في طارمة ضخمة بقدر رواق بالمدرسة، وفوق ذلك إلي السقف صفائح الذهب الأحمر، وعلي الباب الطارمة الستور بالمدرسة، وفوق ذلك إلي السقف صفائح الذهب الأحمر، وعلي باب الطارمة الستور التنيسي، وللمكان شعاع يأخذ البصر عند طلوع الشمس عليه، وكان تحته سرير ملبس بصفائح الذهب، وحواليه التماثيل المرصعة من الجواهر والياواقيت، فسلمت عليه وتركت بين يديه هدية كانت معي، فقال تبرك بما يهديه العلماء، ثم أمر خادمه أن يطوف بي في داره، فدخلنا إلي خرگاه عظيمة قد ألبست قوائمها من الذهب، وفيها من الجواهر

^١ - ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٢١٠. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ١٨٩. (ذكرنا هذه الغزوة بتاريخ ٤٢٥ هـ / ١٠٣٣م). الكرديزي: زين الأخيار، ص ٣٢٢. بداوني: منتخب التواريخ، ج ١، ص ٢٢. الهروي: طبقات أكبري، ج ١، ص ٣٧.

^٢ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٢٩، ص ٣٤.

^٣ - بداوني: المصدر نفسه والجزء والصفحة. عباس إقبال: تاريخ إيران، ص ١٩٧. استاد خليلي: المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

^٤ - ميرخواند: روضة الصفاء، ص ١٦٩. النويري: نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٨١. عبد العظيم رضايي: تاريخ ده هزار ساله إيران، ج ٣، ص ٤٦.

واليواقيت شيء كثير، وفي وسطها سرير من العود الهندي وتمثال وطيور بحركات إذا جلس الملك صفقت بأجنحتها إلى غير ذلك من العجائب^١.

ومما يدل على الثراء الذي تمتعت به مدينة "غزة" في عهد سلاطين الدولة الغزنوية والذي كان مصدره ثروات الهند، أن السلطان "سنجر السلجوقي" (٥١١: ٥٥٢ هـ / ١١١٧ - ١١٥٧ م) عندما دخل "غزة" في عهد السلطان "مسعود الثالث" (٥٠٨: ٤٩٢ هـ / ١١١٤: ١٠٩٨ م) أخذ منها أموالاً كثيرة لم يُر مثلاً، من ذلك خمس تيجان كل تاج قيمته مليون دينار وسبعة عشر سريراً من الذهب والفضة وألف وثلاثمائة قطعة مصاغ مرصعة بالجواهر^٢.

ب - الجزية

الجزية مقدار من المال فرضه سلاطين "غزة" على حكام الهند طبقاً لما شرعه الدين الحنيف، فهذا "سبكتكين" (٣٦٦: ٣٨٧ هـ / ٩٩٧: ٩٧٦ م) قرر على حاكم "قصدار" مالاً يحمل إليه كل عام، ومقداره خمسة عشر مليون درهم^٣. وعندما طلب ملك الهند الصلح من "سبكتكين"، فأجابه على طلبه وقرر عليه مالاً كثيراً يُحمل إليه^٤. كما ألزم السلطان "محمود" (٤٢١: ٣٨٨ هـ / ١٠٣٠: ٩٩٨ م) أهل المولتان سنة (٣٩٦ هـ / ١٠٠٥ م) بدفع عشرين ألف درهم كل عام عقوبة لعصيانهم، وذلك لأنه نما إلى علم السلطان "محمود" أن والي المولتان "أبا الفتوح" دعا قومه إلى اعتناق المذهب الشيعي، فرأى السلطان محمود ضرورة التخلص منه حتى لا تحدث فتنة مذهبية في دولته، فسار إليه فاستسلم له أهل

١- ابن الجوزي: المتظم، ج ٩، ص ١٠٩، ١١٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٦٢. النويري: المصدر نفسه والجزء والصفحة.

٢- ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٥٦. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٩٢.

٣- العتبي: تاريخ اليميني، ج ٢، ص ١٣٣. ميرخواند: روضة الصفا، ص ١٣٢. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٤١.

٤- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٠٥.

المولتان، وألزمهم الغرامة السابقة، كما أرغمهم على التحول للمذهب السني^١، وعند وصوله سنة (٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م) إلي "ناراين" صالح ملكها علي مبلغ من الذهب كل عام^٢، وخمسين فيلاً وأن يكون له في خدمته ألفا فارس^٣.

ج - الهدايا

أما بالنسبة للهدايا التي كان يرسلها حكام الهند إلي سلاطين "غزنة" فكثيرة، فيذكر "البیروني" أن الملك "تروجييال" أهدى السلطان "محمود" ياقوتتين علي شكل حبة العنب، وزن كل واحدة منهما اثني عشر مثقالاً، وأنها قومتا بعشرين ألف دينار، أطلعه عليها الأخوان الحسن والحسين الرازيان قيماً بيت مال السلطان "محمود" الذي جمع من الجواهر سبعين رطلاً، وكل جوهرة منها لها قيمة عظيمة^٤، كما أرسل له حاكم قلعة "كوالير" حين فتحها صلحاً بالهدايا، ومن بينها خمسة وثلاثون فيلاً، كما أرسل له حاكم قلعة "كالنجر" ثلاثمائة فيلا كهدية بالإضافة إلي الأموال والجواهر^٥. كما أرسل حاكم "دير رام" هدايا وأموال كثيرة إلي السلطان "مسعود" فقبلها وعاد إلي "غزنة"^٦.

والسؤال الآن ماذا فعل سلاطين "غزنة" بكل تلك الثروات؟! تلك الثروات أغرقت مدينة "غزنة" في سيل من الترف حتي أصبحت من أغني مدن الشرق، وأصبحت من أجمل البلاد في العالم^٧، كما عملت تلك الأموال علي إيجاد نهضة أدبية وفكرية وازدهار

^١ - الكرديزي: زين الأخبار، ص ٢٨٧. هندوشاه: تاريخ فرشته، ص ٢٥. ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٣٤.

^٢ - محمد عبد الحميد الرفاعي: الخلافة العباسية، ص ١٧٩.

^٣ - خواندمير: حبيب السير، ج ٢، ص ٣٧٩. ميرخواند: المصدر نفسه، ص ١٤١.

^٤ - محمد عبد الحميد: حياة البيروني، ص ٤٢.

^٥ - بداوني: منتخب التواريخ، ج ١، ص ١٦. الكرديزي: المصدر نفسه، ص ٣٠٠. هندوشاه: المصدر نفسه، ص ٣١.

^٦ - الكرديزي: المصدر نفسه، ص ٣٢٧.

^٧ - استاد خليلي: المرجع نفسه، ص ٣٥٧.

ثقافي فيها، فمن تلك الأموال أغدق سلاطين "غزنة" في العطاء علي الشعراء والأدباء والفقهاء المتواجدين في بلاطها العامر بالعلماء، كما أنفقوا الكثير منها في بناء دور العلم المختلفة من مساجد ومدارس^١.

أخلاق^٢ العلماء

الأخلاق هي جوهر الدين الإسلامي، فقد حدد رسولنا صلى الله عليه وسلم الغاية من بعثته بقوله "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، لذلك تعتبر الأخلاق الحميدة والقيم والمبادئ من المقومات الأساسية لأي نهضة ثقافية، ولها أثرها في ازدهار علومها، تلك القيم كانت متمثلة يوما ما في العلماء المسلمين، آمنوا بها فكانت سر نجاحهم وجوهر ثقافتهم، فأصبحت الحضارة الإسلامية من أعظم الحضارات وذلك لالتزام مؤسسيها بقيم أخلاقية ثابتة غير قابلة للتغيير أو التعديل^٣.

تميز العلماء المسلمون بوجه عام بأنهم تحلوا بكل ما هو حميد، فكان كل واحد منهم هو الأعلي والأرسخ قدما في علمه وفنه، وإن كتب العالم منهم لتعد بالعشرات إن لم تبلغ المئات، ويرجع الفضل في غزارة إنتاجهم وأصالة بحوثهم وتعدد تخصصاتهم واتساع ثقافتهم، إلى تلك الصفات من حب العلم والمعرفة إلى الصبر والمثابرة على البحث العلمي والترفع عن الصغائر والابتعاد عن الغرور والتمسك بالأمانة والاستعلاء بالعلم عن

^١ - Bosworth: The Development of Persian Culture under the Early Ghaznavids, p37.

^٢ - الأخلاق: عبارة عن المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني والتي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان علي نحو يحقق الغاية من وجوده في العالم علي أكمل وجه. (ريسler: الحضارة العربية، ص ١٨٢)

^٣ - أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية، ص ٣٦. ريسler: الحضارة العربية، ص ١٨٢.

زخارف الدنيا ومباهجها، فكانت لهم شخصياتهم التي تفردوا بها بين علماء العالم علي مر العصور^١.

ويمكن تقسيم الأخلاق هنا إلى قسمين: أخلاق شخصية تتعلق بطريقة سلوك العالم من حيث هو إنسان كالإيمان والزهد والصبر وحب العلم وغيرها من الصفات الحميدة، وأخلاق علمية متصلة بعمله العلمي سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، ويمكن تلخيص تلك الأخلاق في كلمة واحدة ألا وهي الموضوعية بمعانيها المختلفة من الحياد والروح النقدية والنزاهة والأمانة العلمية^٢.

وبالنسبة للأخلاق الشخصية، كان العلماء المسلمون مؤمنين برسالتهم في إطار مبادئ الإسلام وتعاليمه السامية، لذلك اهتموا بأمور دينهم الحنيف ورسخوا العلم لخدمة القضايا الدينية، وتسهيل أداء الفروض والعبادات والمناسك، فطوروا طرق القياس والحساب لتحديد سمت القبلة، وتعيين أوائل الشهور ومنازل القمر ومواقيت الصلاة والحج وحساب المواريث والمعاملات وغيرها، وألفوا في ذلك العديد من الكتب والرسائل التي استفاد منها المسلمون، كذلك لم يتركوا الفرصة في مؤلفاتهم المختلفة للإشادة بعظمة الخالق وقدرته، كما استفادوا من العلوم المختلفة في كشف أسرار القرآن الكريم^٣. ومن الظواهر الرائعة التي وضحت في تلك الفترة اتجاه العلماء إلى إظهار علمهم مصطبغاً بالصبغة الإسلامية البحتة، فظهر عدد كبير من العلماء الإسلاميين الذين وضعوا المناهج الإسلامية الخالصة في البحث كأبي الريحان البيروني.

^١ - أحمد فؤاد باشا: المرجع نفسه، ص ٣٧. مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة اليونسكو: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، ص ١٩٢.

^٢ الموضوعية: هي البعد عن الذاتية والأهواء الشخصية والإلتزام بالحقائق الواقعية وتسجيلها كما هي، والإلتزام بالحيادة، ووقوف الباحث من الظاهرة التي يدرسها موقفاً محايداً من الناحية الإنفعالية أو العاطفية دون تحيز أو تعصب، ودون أن يترك لأهوائه الذاتية أن تؤثر فيه. (عبد الرحمن العيسوي: مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث، ص ١٠)

^٣ - أحمد فؤاد باشا: المرجع نفسه، ص ٣٨.

يكفي الإطلاع علي مؤلفات "البيروني" للكشف عن إيمانه العميق بالإسلام، فعلي الرغم من أنه لم يتناول قضايا إسلامية بالتحديد في مؤلف بذاته، إلا أنه لشدة إيمانه بالله غمرت أبحاثه العلمية الحماسة، وإلي الله خالق الكون كان يتوسل بمؤلفاته ورسائله، كما أنه كان يشعر دائماً بوجوب جعل مؤلفاته تنسجم كل الانسجام مع تعاليم القرآن الكريم، حيث كان علي إدراك واع للمفاهيم الكونية والطبيعية التي ترد الإشارات إليها في القرآن الكريم، وكثيراً ما كان يرجع إليها في أبحاثه التجريبية، حيث كان يشعر بأن هذه الآيات تحوى كثيراً من الحقائق والتي لابد للباحث من السعى إلي اكتشافها، كما أن الدراسات العقلية والدينية المختلفة التي درسها البيروني لم تسلمه إلي الوهن في عقيدته أو الشك في قيمه، بل إنها مكنته من أن يطبعها بطابع الإيمان الحي الذي يزيل كل غشاوة ويدفع الزائف دفعاً^٢.

أما عن حبه للعلم ومثابرتهم علي البحث العلمي، فيتضح ذلك من خلال الرحلات العلمية الشاقة التي كانوا يقومون بها، حتي أن العالم منهم كان يقطع آلاف الأميال من أجل أن يلتقي عالماً ويحقق مسألة علمية أو يطلع علي كتاب أو يحصل علي مخطوط نادر^٣. واتضح ذلك أيضاً من خلال علم الفلك، فقد لاحظ الفلكيون التغيرات في الظواهر الطبيعية والتي قالت عنها التحقيقات الفلكية القديمة أنها ثابتة وغير متغيرة، فاتضح لهم ذلك بفضل صبرهم الذي كان معيناً لهم ومشجعاً في أبحاثهم، والذي ساعدهم علي تكوين دقة حسهم في تمييز الفروقات^٤.

وقد وصل "البيروني" إلي ما وصل إليه من معرفة بفضل ما منحه الله من فطرة صبورة علي البحث، فلم يترك جهداً ولا وقتاً إلا بذله في سبيل دراسته وتحقيق القضايا التي كان

١- بركات محمد مراد: البيروني فيلسوفاً، ص ٢٧.

٢- علي الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٢٩٣.

٣- أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية، ص ٣٧.

٤- زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع علي الغرب، ص ١٥١.

بصدها. ويحدثنا "ياقوت الحموى" في ذلك فيقول "ولا يكاد يفارق يده القلم، وعينه النظر وقلبه الفكر إلا في يومي النيروز والمهرجان من السنة، لإعداد ما تمس إليه الحاجة في المعاش من بلغة الطعام وعلقة الرياش"^١ ومع كثرة ترحاله بين مختلف الأقاليم ومصاحبته للسلطان "محمود" في غزواته إلا إنه لم يكن ينقطع لحظة واحدة عن الكتابة أو التأليف أو تحقيق الأرصاد الفلكية أينما كان وحيثما ذهب.

أما عن ترفع العلماء عن الصغائر وزهدهم في المال، فنضرب المثل على ذلك "البیرونی" والذي كان حبه للمال حب الإستغناء وليس حب الجشع والشراسة فإذا زاد المال عن حاجته رده إلي ذويه، فالذى يهيمه في المقام الأول أن يتوفر له الحد الأدنى من الحياة الكريمة والتي تمكنه من التفرغ لبحوثه، فإذا زادت الأموال عن حاجته امتنع عن قبولها لأن هدفه لا يخرج عن نطاق العلم^٢. وكان جلوس العلماء للتدريس دون أجر مادي دليلاً على إخلاصهم لعملهم وتفانيهم فيه، إذ لم يكن هناك دافع لهم سوى خدمة العلم والرغبة في الثواب، ومن أجل هذا اجتمع علماء "ما وراء النهر" وأقاموا مأتماً للعلم عندما بلغهم خبر بناء المدرسة النظامية في "بغداد"، وقالوا كان يشتغل بالعلم أرباب المهمم العالية والأنفس الذكية يقصدون العلم لشرفه والكمال به، وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل فيكون ذلك سبباً لمعاناته وضعفه^٣.

كذلك اتسم العلماء والشعراء بالجوهر والكرم، ومنهم الشاعر "مسعود سعد سلمان"؛ والذي مدح الكثير من أمراء و وزراء الدولة الغزنوية، وفضلاً عن كونه شاعراً رفيع

^١ - ياقوت الحموى: معجم الأدباء، ج ١٧، ص ١٨١.

^٢ - علي الشابی: المرجع نفسه، ص ٢٨٩. محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية، ص ١٦١.

^٣ - أحمد شلبی: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٢١٧، ٢١٨.

^٤ - مسعود سعد سلمان: من كبار شعراء النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، عاصر السلطان "إبراهيم"، وأحياناً كان يصاحب الأمير "سيف الدولة محمود بن إبراهيم"، والذي أصبح والياً علي الهند سنة (٤٦٩هـ/١٠٧٦م) رحل مسعود إلى بلاطه وأصبح ملازماً له حتي سنة (٤٨٠هـ/١٠٨٧م)،

المنزلة كان كريماً سخياً علي زملائه الشعراء، وقيل أنه كان يجود بها تحمله قافلة من العطايا لمن تعجبه رباعية من رباعياته، وذلك حين كان على جانب كبير من اليسار^١ ومن ذلك قوله:-

عندما كان لدى مال ومتاع، لم تكن للسانى عادة الرفض وقول لا فى أى وقت إطلاقاً^٢

كذلك كان "مسعود سعد" صاحب سجايا وفضائل أخلاقية وعقل راجح محباً للعلم والبحث والتحصيل، وفيّاً في حبه مخلصاً لديه إباء واعتزاز أصيل بالنفس، متديناً طاهر العقيدة قوى الإيمان، له رأى في المذاهب والأفكار الفلسفية، وكان شجاعاً عفيف النفس غير أنانى، صبوراً على تحمل الشدائد لا تلين له عزيمة^٣.

أما التواضع، فهو سمة غالبية علي سلوك علماء ذلك العصر، فقد آمنوا بأن المعرفة لا حد لها، وأن العاقل من يظن أن فوق علمه علماً، فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة والجاهل من يظن أنه قد تناهي، فتمقتته النفوس لذلك^٤. فالعالم منهم كان يرى أنه يتعين عليه البحث عن الحقيقة المطلقة بمعزل عن الأهواء والرغبات، ويسعي ورائها لأنها الحقيقة وليس للتفاخر بالمعرفة^٥.

وبمرسوم من السلطان "إبراهيم" حبس ابنه "سيف الدولة محمود" و"مسعود سلمان"، ومكث في الحبس حتى سنة (٤٩٠هـ/١٠٩٦م)، وبعد وفاة السلطان "إبراهيم" أودع السجن مرة أخرى، ظل في هذا السجن قرابة ثمان سنوات ثم أفرج عنه سنة (٥٠٠هـ/١١٠٦م) (عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر، ج٢، ص١٥١. نظامي العروضي: جهاز مقالة، ص١٢٢. ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران، جلد دوم، ص٤٨٨: ٤٨٣. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص٨٦).

١- حسين حبيب المصري: المسجد بين شعراء العربية والفارسية والتركية، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٣م، ص١٦٩.

٢- طلعت محمد أبو فرحة: مسعود سعد سلمان، ص٢١٤.

٣- المرجع السابق، ص٢٠١.

٤- أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية، ص٣٨.

٥- محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية الإسلامية، ص١٦١.

كما اتسم العلماء بالشجاعة والصدق والدفاع عن الحق، فهذا "البيروني" كان من أشجع الناس في ذلك العصر وأكثرهم صراحة، فإذا طلب إليه أن يكشف عن رأيه في موقف ما لم يتردد عن المجاهرة بالحق، فقد صارح "أبا العباس مأمون بن مأمون" بامتعاضه من مواقفه المترددة لمواجهة السلطان "محمود"، وباستخفافه من ضعفه أمام جيشه، وذلك عندما استشاره حول الدعاء للسلطان "محمود" والخطبة باسمه^١. كما أنه لا يتأخر عن الهجوم والعنف إذا ما رأي الحق في خطر، هذه الشهادة من المستشرق "سحاو" يؤيدها ويتأكد من صحتها كل من نظر في كتب "البيروني"^٢. ويقول عن نفسه في إصرار "إني لا آبي قبول الحق من أي معدن وجدته"^٣. كذلك كان خصماً عنيداً للكذب، فنجده يرفع من شأن الصدق، وخاصة فيما يتصل بالبحث العلمي، حيث يعتبره أرفع أنواع الشجاعة، فهو لا يقل عن شجاعة خوض المعارك "فالخلق الذي تظنه العامة شجاعة إذا رأوا إقداماً علي المعارك وتهوراً في خوض المهالك هو نوعٌ منها"^٤.

ولأهمية الأخلاق نجد الكثير من المؤلفين المسلمين يهتمون اهتماماً كبيراً بأخلاق طلاب العلم وواجباتهم، ومن تلك المؤلفات يمكن كتابة نبذة موجزة عن أهم ما يجب أن يتحلي به طلاب العلم، فقد وضع الأمير "عنصر المعالي"^٥ في كتابه "قابوسنامه" صفات

^١ - البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٧٣١.

^٢ - عبد الحليم محمود: الفلسفة الهندية مع مقارنة بفلسفة اليونان والتصوف الإسلامي، ص ١٥.

^٣ - البيروني: تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، حققه ب. بولجاكوف، فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، (د. ت)، ص ١٠٤.

^٤ - البيروني: تحقيق ما للهند، ص ١٤.

^٥ - عنصر المعالي كيكافوس بن اسكندر بن قابوس بن وشاكير (ت ٤٧٥هـ / ١٠٨٢م) عاشر الأمراء الزياريين حكم قهستان من سنة (٤٤١هـ / ١٠٤٩م)، كان على صلة كبيرة بالأسرة الغزنوية، حيث تزوج ابنة السلطان محمود = واشتغل مدة بمنادمة السلطان "مودود بن مسعود" كما اشترك في غزوات الهند، ولم يتوان الأمير في شيخوخته وشبابه عن تكميل نفسه وترويدها بالمعارف المختلفة، وعندما بلغ الثالثة والستين من عمره جمع ما حصل من معرفة وعلم وما اكتسب من تجارب في كتاب وقدمه إلى ابنه ليعلمه كيف يعيش ويحكم وهو كتابه قابوس نامه. (ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران،

طالب العلم ومنها "فإذا كنت طالب علم من الحرف التي ذكرتها فكن متعففاً وقانعاً ومحباً للعلم وعدواً للدنيا وحمولاً وخفيف الروح وساهراً ومبكراً وحريصاً في الكتابة والدراسة ومتواضعاً وغير ملول من العمل وحافظاً ومكرراً للكلام، ومتفحصاً للسير، ومحباً للعلماء، ووقوراً ومحترماً، وكن في التعلم حريصاً وغير خجول وعارفاً لحق الأستاذ. وكل طالب علم بهذه الصفة سرعان ما يصير فريد العصر".^١

أما بالنسبة للأخلاق العلمية والتي تمسك بها علماء "غزنة" فهي تتمثل في الموضوعية، وأول معني للموضوعية هي الروح النقدية^٢، والتي اتصف "البيروني" بها في كتاباته، فنجد أنه ينقد جهلاء عصره والمتحاملين علي أهل العلم والمشتغلين بالمعرفة لقوله "إذا نظرت إلي أهل زماننا وقد شكلوا في أقطاره بشكل الجهل، وتباهوا به وعادوا ذوي الفضل، وأوقعوا بمن اتسم بالعلم وساموه أنواع الظلم والضميم"^٣. كذلك تتجلى الروح النقدية عنده حين ينقد مثلاً "جالينوس" لتصديقه خبر ملكات الحيات التي إذا رآها أو سمع فحيحها امرؤ مات في وقته، فيقول "...فليت شعري من أخبر بمكانها أو أخبر بأمرها إذا اطلع عليها ميتاً"^٤.

ص ١٦٣. أربري: تراث فارس، ترجمة محمد كفاي وأحمد الساداتي، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩م،

ص ٢٨٤. بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٣)

^١ - عنصر المعالي: كتاب النصيحة المعروف باسم قابوسنامه، ص ١٦٣.

^٢ - الروح النقدية: هي أن يأخذ العالم علي عاتقه أن يفحص ويدقق ويتحري، دون تدخل من أهوائه، وأن يعي في ذهنه كل خطوة يخطوها. بركات محمد مراد: البيروني فيلسوفاً، ص ٩٠.

^٣ - البيروني: تحديد نهايات الأماكن، ص ٢٢.

^٤ - البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر، ص ٩٩.

هناك معني آخر للموضوعية وهو الحياد^١. وهذا المعني تبيينه بوضوح في مقدمة كتاب البيروني "تحقيق ما للهند" حيث يبين لنا منهجه في تناول عقائد الهنود ومعتقداتهم وشرح أفكارهم ونظرياتهم، وهو يتوخى فيه الموضوعية ويحاول أن يحقق أقصى حياد يمكن أن يقوم به باحث في قوله "ففعلة غير باهت علي الخصم ولا متخرج عن حكاية كلامه، وإن باين الحق واستفزع سماعه عند أهله، فهو اعتقاده وهو أبصر به، وليس الكتاب كتاب حجاج وجدل حتي استعمل فيه بإيراد حجج الخصوم ومناقضة الذائع منها عن الحق، وإنما هو كتاب حكاية، فأورد كلام الهند علي وجهه وأضيف إليه ما لليونانيين من أمثلة لتعريف المقارنة بينهم"^٢.

كما يتجلي الحياد والأمانة العلمية لدى علماء الإسلام في إنساب الأعمال إلي أصحابها والتنويه بأفضال الآخرين وعدم التهرب من إنساب إنجازاتهم إليهم حتي لو تم الإضافة إليها، فهذا "البيروني" ينسب النظريات الرياضية من هندسة وحساب مثلثات إلي أصحابها سواء كانوا من العلماء المسلمين أو الفرس أو اليونان، أما أفكاره الخاصة فيذكرها علي أنها من وحي له أو من برهان خاص به^٣. وفي ذلك تقول المستشرق "زيغريد هونكه" "كم كان من السهل أثناء نقل مثل تلك الأخبار من فم لآخر أن تسرق النظريات والاكتشافات، ولكن الأمانة العلمية الحق منعت هذا... فلم يكن العربي يرضي أن يحرق فمه بأفكار سرقها عن غيره، فمن يرغب من المعلمين أن يحاضر من كتاب لغيره وجب عليه أن يحصل أولاً علي إجازة من مؤلف هذا الكتاب، ولم يكن لأحد أن يأخذ آراء أستاذه التي ألقاها

١ - الحياد: هو أن يعطي العالم كل رأى من الآراء المعارضة حقه الكامل في التعبير عن نفسه دون التحيز مسبقاً للرأى من الآراء، وإذا انحاز العالم في آخر الأمر لأحد الآراء فلا بد أن يكون انحيازه هذا مبنياً على تقدير موضوعي بحث لإيجابيات الحجج وسلبياتها. بركات محمد مراد: المرجع نفسه، ص ٩٧.

٢ - البيروني: تحقيق ما للهند، ص ١٥، ١٦.

٣ - أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية، ص ٤٠.

شفويًا في إحدى محاضراته ليُدرسها لتلاميذه دون أن يستأذن أستاذه صاحب الرأي نفسه... وبذلك كان حفظ حق المؤلف مرعيًا مقدسًا^١.

يتضح مما سبق الصفات الشخصية والعلمية التي اتصف بها العلماء المسلمون، ومنهم علماء مدينة "غزة" في تلك الفترة والتي يجب أن يتصف بها كل عالم، تلك السمات الأخلاقية جعلتهم جديرين بالمكانة العلمية والاجتماعية التي احتلوها، فالعالم منهم كان معلمًا وداعيةً وقُدوةً حسنةً، وكان مسؤولاً عن رقي وتقدم واستقرار المجتمع الذي يعيش فيه، وعدته في ذلك كله هو التمسك بالأخلاق الإسلامية والعلمية في آن واحد من الدقة في العمل والصدق في القول وتحديد الهدف والنقد الذاتي والصبر، وهي المعايير التي تميز العالم الأصيل عن غيره.

تلك كانت القدوة الطيبة التي يجب أن نحذو حذوها ونضعها نصب أعيننا حتى نستفيد منها الناشئة من أجيال أمتنا الإسلامية، فلن تصلح تربية إلا إذا اعتمدت على الأسوة الحسنة، تلك الأسوة التي يجب أن نأخذها من أسلافنا الرواد... حتى بعد أن رحلوا عنا بألف عام.

حوانيت الوراقين

أدرك العلماء المسلمون أهمية النشر في توصيل العلم إلى أهله، قال تعالى: ﴿وَالطُّورُ، وَكِتَابٍ مُسْطُورٍ، فِي رَقٍ مَنْشُورٍ﴾^٢ فقد أقسم الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات بالقرآن الكريم الذي تقرأه الملائكة من اللوح المحفوظ ويقرأه المؤمنون من المصاحف، ونكر الكتاب لأنه مخصوص بين الكتب، والرق هو الصحيفة أو الجلد الذي يكتب فيه، ومنشور أي مفتوح^٣. ومن الأقوال المأثورة التي تدل على أهمية نشر العلم عند العلماء المسلمين

^١ - زغيريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٩٧، ٣٩٨.

^٢ - الطور: (٣: ١)

^٣ - النسخة: تفسير النسخة المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ٣، بيروت، دار القلم، ١٩٨٩م، ص ١٧٠٦.

قول أحد الحكماء في ذلك " لن يصاب العلم بمثل بذله، ولن تكافئ النعمة فيه بمثل نشره"^١، كما أن العلم لا يكون علماً إلا بانتقاله للآخرين، ولن يكون ذلك إلا بنشره.

حرص العلماء علي نقل نتائج أبحاثهم إلي المشاركين لهم في المجالات المشتركة التي يهتمون بها، فلا قيمة لتلك النتائج إذا احتفظ بها صاحبها لنفسه، فالغرض الأساسي لتأليف الكتب هو نشر المعلومات والانتفاع بها، ولا شك أن أكثر المؤلفين يرجون أن يكتب لمؤلفاتهم الانتشار والرواج، ولن تكون تلك الاستفادة إلا بتوفر الكتاب في عدة نسخ حتى يتسني للمستفيدين الحصول علي نسخ منه إما عن طريق الشراء أو عن طريق الإستعارة من المكتبات التي تعمل علي اقتناء نسخ من هذا الكتاب.

ومن الجدير بالذكر أن الترجمة كانت من أهم العوامل التي ساعدت على ازدهار مهنة الوراقة، فمع زيادة حركة الترجمة ظهرت الحاجة إلي نسخ الكتب وتبادلها بين الناس، وعليه فقد ظهرت الوراقة لتفي بمثل هذه الحاجات، حيث كان الوراقون ينسخون الكتب المنقولة والمترجمة لعدد كبير من الموسرين ومحبي المعرفة حين كانوا يرغبون في الاحتفاظ بها في مكتباتهم الخاصة أو وقفها علي طلبة العلم^٢.

كان المشتغل بنسخ الكتب وتصحيحها ويبيعها في تراثنا الإسلامي يعرف بالوراق^٣، وقد ظهر هذا المصطلح بعد معرفة المسلمين الورق وانتشار صناعته في النصف الثاني من

^١ - ناصر محمد عبد الرحمن: الاتصال العلمي في التراث الإسلامي من صدر الإسلام حتى نهاية العصر العباسي، دار الغرب، (د.ت)، ص ١٢٩ : ١٣١.

^٢ - ناصر محمد عبد الرحمن: الاتصال العلمي في التراث الإسلامي، ص ١٣١.

^٣ - ابن خلدون: المقدمة، ج ٢، ص ٨٨٩.

القرن الثاني للهجرة^١. ففي التقدم الثقافي يمثل الورق عدته وآلاته لأنه السبيل إلى حفظ المعرفة وبقيائها علي مر الزمان^٢.

استدعى انتشار استعمال الورق والاستغناء عن الرقوق غالية الثمن ظهور طائفة من الناس اشتغلوا بالورق والكتابة، وهؤلاء هم الوراقون الذين لعبوا دورًا مهمًا في تاريخ الثقافة الإسلامية، فقد كانوا فئة من المتعلمين الذين يتمتعون بالمعرفة الواسعة والعلم الغزير والثقافة العالية، والذين تركوا لنا آلاف الكتب التي حفظت لنا تراث حضارتنا^٣. ذلك لأن الوراقين آن ذاك كانوا الناشرين للكتب عن طريق نسخها وبيعها، ولم تكن حوانيتهم أماكن للبيع فقط ولكن كانت مجمعا للعلماء والأدباء ومحبي الكتب، تعقد فيها المناظرات وتدور بها المناقشات^٤. كما لم يكن أصحاب تلك الحوانيت مجرد تجار ينشدون الربح المادي فقط، بل اختاروا هذه المهنة لما تتيحه لهم من فرص القراءة والاطلاع لهم ولغيرهم من المثقفين، وبذلك فهي تقوم مقام المكتبات العامة حاليًا^٥.

كان الوراقون علي فئات ثلاث: منهم الوراقون المحترفون الذين اتخذوا الوراقة مهنة يرتزقون منها بتوفير نسخ الكتب للراغبين في شرائها مقابل أجر متواضع، حيث لم يغالوا في أثمان الكتب حرصًا منهم علي خدمة العلماء ومساعدة الطلاب وإسهامًا في بناء الحضارة، ومنهم وراقو المؤلفين وهم الذين ينسخون الكتب لمؤلفين بعينهم يعملون تحت

^١ - شعبان عبد العزيز خليفة: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧م، ص ١٤٩. عبد الله العمري: تاريخ العلم عند العرب، ص ٢٣.

^٢ - ريسلر: الحضارة العربية، ص ١٨٥.

^٣ - هالة شاكر: الورق والوراقون في العصر العباسي، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٤م، ص ٢٢٥.

^٤ - محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ط ٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٨م، ص ٧٥. يوسف محمود: الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلامية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦م، ص ٧٩.

^٥ - أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٤٢. هالة شاكر: المرجع نفسه، ص ٢٣٨.

أيديهم، ومنهم المؤلفون الوراقون، وهم جماعة من المؤلفين كانوا ينسخون كتبهم وكتب غيرهم من العلماء^١.

وهذه المهنة يجب أن يتوفر في صاحبها دقة الضبط وجودة الخط ووضوحه وإتقان العمل بحيث لا تدعوه الرغبة في السرعة والإنجاز إلى حذف جزء أثناء الكتابة^٢، فإذا توافرت تلك الصفات كانت سبباً في إقبال الناس على اقتناء الكتب التي نسخها أحد الوراقين المتسمين بتلك الصفات. كما كان واجباً على الوراق ألا يكتب شيئاً من كتب أهل البدع والأهواء والتي لا ينتفع بها المسلمون^٣، لذلك كان هناك نوعاً من الرقابة على أسواق الوراقين وحوانيتهم بحيث تمنعهم من نسخ الكتب التي لا يتناسب موضوعاتها والتوجه الديني أو الاجتماعي، بل ربما استحلف الوراقون على ألا ينسخوا بعض الكتب الممنوعة من التداول، لما تشكله من خطر على الفكر، وخشية الفتنة والانحراف عن الدين^٤.

ومن أشهر وراقي مدينة "غزة" محمد بن إسحاق بن علي بن داود بن حامد القاضي أبو جعفر الزوزني البحاثي (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)، وهو ممن اشتهروا بحسن خطهم، كان ينسخ كتب الأدب بخط حسن النسخ جميل^٥، نسخ بخطه كتاب "يتيمة الدهر" "لأبي منصور الثعالبي" في خمسة مجلدات بخط حسن، وبيعت تلك النسخة بثلاثين ديناراً نيسابورياً، كذلك كتب نسخة من "غريب الحديث" لأبي سليمان الخطابي^٦.

ومنهم "محمود الوراق" وهو من العلماء الوراقين، فله العديد من المؤلفات في شتى أنواع المعرفة، قام بتأليف كتاب في التاريخ بدأه منذ بداية التاريخ وحتى سنة (٤٠٩ هـ/

١- ناصر محمد عبد الرحمن: المرجع نفسه، ص ١٣٤: ١٣٦.

٢- أحمد شلبي: المرجع نفسه، ص ١٤٦.

٣- السبكي: معيد النعم، تحقيق محمد علي النجار وأبو زيد شلبي، ط ٢، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٩٣ م، ص ١٣١.

٤- علي بن إبراهيم الحمد النملة: النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية، ص ٦٦.

٥- الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣١، ص ١٢٧: ١٢٩.

٦- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ١٨، ص ٢٠.

١٠١٨م) وهى السنة التي بدأ فيها البيهقي تاريخه، وقد استقى منه البيهقي كثير من المعلومات فى كتابه "تاريخ البيهقي"، ولا يعرف تاريخ وفاته علي وجه التحديد، ومن المرجح أنه توفي فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى لما ذكره "البيهقي" من أنه قام بتأليف كتابه هذا سنة (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨م)^١. ومنهم "أبو المحامد محمد بن مسعود بن محمد الزكى الغزنوى" والذي كتب كتاب الصيدنة للبيرونى، وقد اعتمد على المسودة التى كتبها البيرونى بنفسه ومعه الشيخ "أحمد النهشعى"^٢.

ومن العلماء من كان يقوم بنسخ كتبه بنفسه ومن هؤلاء البيرونى فقد جاء فى نهاية كتابه "تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن": "تم كتابة تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن وفرغت منه بغزة لسبع بقين من رجب سنة عشرة وأربعمئة"^٣.

خلاصة القول أن حوانيت الوراقين لعبت دورًا بارزًا فى إثراء الحركة الثقافية التى شهدتها مدينة "غزة" لأنها كانت أماكن التقاء العلماء، ومنتدى للجدل والنقاش والتواصل الفكرى، كما أنها كانت سبيل الإنسان لحفظ أفكاره ومآثره، وتخليد علومه وثقافته، كما أنها تعتبر من المؤسسات التربوية البعيدة عن التعصب لمذهب أو فرقة معينة^٤.

وبذلك نكون استعرضنا أهم عوامل ازدهار الحياة الثقافية فى مدينة "غزة"، فالتقدم العلمى لتلك المدينة كانت له أسباب وعوامل كثيرة لا يمكن ربطها بأمر دون آخر، وكانت من تلك العوامل أمور فقدناها فى هذه الأيام، فقد كان إخلاص الطرفين العالم والمتعلم، وكان استغراق الوقت كله فى العلم، وكانت بساطة الأحوال الاجتماعية و شظف العيش،

^١ - البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٢٨٧.

^٢ - محمد سويسى: أدب العلماء فى نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجرى (البيرونى وعمر الخيام)، ليبيا، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٧م، ص ٧٨.

^٣ - أيمن فؤاد السيد: الكتاب العربى المخطوط وعلم المخطوطات، ج ٢، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧م، ص ٣٩٤.

^٤ - سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨٦م، ص ٤٧٥.

كل ذلك وغيره كان سبباً من أسباب التقدم العلمى. فالعلم ومنجزاته هو ما يقود الأمم إلى التقدم والقوة والرخاء، ذلك العلم لا يزدهر ويثمر إلا في أحضان حضارة متكاملة تقوم علي أسس متينة من النظم السياسية والمبادئ الأخلاقية والعقائد الراسخة والمثل العليا مما لا يتوفر للمسلمين في عصرنا الحالى.

ثانياً: المؤسسات التعليمية في مدينة "غزة"

المنشآت التعليمية

نتيجة لأهمية التعليم. الذى لازم الدعوة الإسلامية منذ ظهورها. وضروريته لبناء أى مجتمع حضارى، فكان لابد من توفيره بين طبقات المجتمع وتسهيله على كل فرد منهم، لذلك أقام سلاطين الدولة الغزنوية منشآت تعليمية متعددة ومتنوعة لخدمة العلم ورفع شأن أبنائه ثقافياً.

تدرجت المراحل التعليمية عند المسلمين، وهذا ما وضعه لنا "ابن خلدون" في كتابه "المقدمة"¹، فبدأت أولاً بالكتاتيب ثم المساجد والمدارس، بالإضافة إلى المجالس العلمية، وهذا ما سيتم توضيحه من خلال المؤسسات التعليمية.

الكتاتيب

الكتّاب أو المكتب هو المرحلة الأولى في نظام التعليم عند المسلمين، وهو أقدم أنواع المؤسسات التعليمية²، والذين يتولون تعليم الصغار فيها يسمون المعلمين أو المكتبين، وهذه الكتاتيب إما أن تكون في بيوت المعلمين أو تكون في أماكن خاصة يتخذها المعلمون لهذا الغرض، وقد يكون الكتّاب ملحقاً بالمسجد دون أن يكون داخلاً فيه³. كان الآباء

¹- ابن خلدون: المقدمة، ج ٣، ص ١١١٠.

²- الشهرزورى: تاريخ الحكماء، ص ٢٩٧. أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٢٥.

³- ذبيح الله صفا: تاريخ تعليم وتربيت إيران إز قرن هفتم تا قرن دهم، مجلة مهر، شماره ٢، سال چهارم، تيرماه، ١٣١٥ هـ، ص ١٥٧. منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٥٢. عبد الله منسي

يدفعون الصغار إلى الكُتَّاب منذ الصغر في الخامسة أو السادسة، وبعضهم في السابعة أو الثامنة، على أن العام السادس من عمر الطفل يعد المرحلة الملائمة لدخول الكُتَّاب، وكانت مدة بقاء الطفل في الكُتَّاب خمسة أو ستة أعوام^١.

شكلت العلوم المختلفة التي تدور أساسًا حول الموضوعات الدينية القسم الرئيسي من المنهج الدراسي للكُتَّاب، فشملت الدراسة القرآن الكريم والأحاديث والأخبار وبعض الأحكام الدينية والشعر ومبادئ الحساب، إلى جانب تعلم القراءة والكتابة والخط الذي كان له مدرسون متخصصون^٢، ولكن التركيز كان منصبا على القرآن الكريم والعلوم الدينية^٣. وعندما يتم الصبي مدة الدراسة في الكُتَّاب ويحفظ القرآن الكريم يمتحنه المعلم ليتأكد منه، فإذا اجتاز الامتحان احتفل بالختمة ليواصل دراسته إن أراد ذلك^٤.

كان المعلمون يتقاضون الأجور على تعليمهم للأطفال إلا أن بعضهم كانوا يرفضون الأجر على تعليم القرآن^٥، بل كان بعضهم يرفض تقاضى أجر على تعليم الأدب، ومنهم

العمرى: تاريخ العلم عند العرب، ص ١٨، ١٩. رحيم كاظم، عواطف العربى: الحضارة العربية الإسلامية، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، (د.ت)، ص ١٤٩.

Hillen Brand: Madrasahs Islamic Period, vol. ٢, London, ٢٠٠١, p ١٦٦.

^١ - ابن سينا: القانون، ج ١، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٨٧٧م، ص ١٥٧. هشام نشابة: المدنية الإسلامية، ترجمة أحمد محمد تعلق، مقالات مختارة من حلقة التدارس التي عقدت بمركز الشرق الأوسط، جامعة كمبردج، اليونسكو، ١٩٨٣م، ص ٨٢.

^٢ - ابن خلدون: المصدر نفسه والجزء، ص ١١١٧. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، ص ١٦٣. أحمد جاب الله شلبى: التعليم والتربية عند المسلمين، ص ٥٣.

Hillen Brand: Op, cit, p ١٦٦.

^٣ - Yamin Cheng: The Islamic Sciences and Question of the Modern Muslim Identity, the Islamic Quarterly, vol. ٤٧, no. ١, ٢٠٠٣, p ٣٨.

^٤ - رحيم كاظم، عواطف العربى: المرجع نفسه والصفحة.

^٥ - منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٥٣.

الشاعر "أبى حنيفة الإسكافي" الذي كان يعلم الأدب بدون أجر^١. وفي الأعم الأغلب كانت الأجور التي يدفعها الصبيان إلى معلمى الكتاتيب محدودة، بل كانت متروكة لحالة الطفل نفسه وطاقة أهله المالية^٢.

ولأن مهنة معلم الكتّاب من المهن العظيمة فهي أساس التعليم، ولأنها تنمى قدرات الصغار علي التعلم وتدفعهم إلي المضي قدماً في التعليم ودراسة العلم علي يد شيوخه في أى مكان، لذلك خضعت الكتاتيب لرقابة المحتسب، فكان يتوثق من معلمى الصبيان ممن تتوفر فيهم الشروط الأخلاقية والاجتماعية والعلمية، كأن يكون المعلم صحيح العقيدة متديناً عاقلاً من حملة كتاب الله عالماً بالقراءات، صالحاً لتعليم القرآن والحديث والخط والأدب^٣.

لم يكن الرجال فقط هم المتخصصون في مهنة تعليم الصغار وتثقيفهم، بل تخصصت بعض النساء في العصر الغزنوى في تلك المهنة، ومنهم جدة "البيهقى"، وقد ساهمت هذه السيدة. التي للأسف لم نصل إلى اسمها. في تعليم العديد من الصغار وتثقيفهم في شتى أنواع العلوم الدينية والأدبية، وامتازت بالتقوى والورع وعلو الهمة والمهارة في تفسير القرآن الكريم، وكانت على دراية كذلك بالعلوم الإنسانية^٤.

^١ - البيهقى: تاريخ البيهقى، ص ٣٠٢، ٣٠٣.

^٢ - أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٢٢٣.

^٣ - السبكي: معيد النعم، ص ١٣٠. (كانت نصيحة السبكي للأباء بصدد اختيار من يعلم أبناءهم ذات أهمية كبرى في التربية الإسلامية، فالمعلم قد يكون مسلماً كاملاً في مظهره الخارجى فيما يتعلق بأداء الفرائض الدينية، ولكنه قد لا يرقى إلى مرتبة المؤمن، أى المسلم الذى لا يكتفى بممارسة شعائر دينه بمظهرها الخارجى فحسب، وإنما يؤمن بها في قرارة نفسه، وغير ذلك قد يلحق ضرراً بليغاً بثقافة الطفل الدينية)

^٤ - البيهقى: المصدر نفسه، ص ١١٥. نعمة على مرسى: المرأة المسلمة في آسيا الوسطى في القرنين الخامس والسادس الهجريين، ص ١٠١.

ومما يدل على علو مكانة الكتاب في ذلك الوقت أن قصده أبناء السلاطين ومنهم السلطان "محمود"، فقد ذهب إلى الكتاب وكان زميله فيه "أحمد بن حسن الميمندى" والذي أصبح وزيره بعد ذلك^١.

التعليم الأولي بالقصور

صاحب انتشار الكتاب عند العامة انتشار التعليم الخاص لأبناء السلاطين والأمراء، وهو نوع من التعليم الأولي يتم في القصور، وهذا التعليم يجد فيه أبناء هؤلاء ما يؤهلهم لتحمل الأعباء التي سينهضون بها في المستقبل، فيتتدب الآباء معلمين خصوصيين للتدريس لأبنائهم في قصورهم بدلاً من إرسالهم إلى الكتاب^٢. ويطلق على هؤلاء المعلمين اسم المؤدبين، أما التلميذ فكان يسمى مؤدب، وفي هذه التسمية المأخوذة من الأدب ما يشير إلى الدور الهام الذي يقوم به المعلم، والذي يتعدى مجرد تعليم الصبي ليشمل تربيته وتهذيبه في العقل والخلق^٣.

كان هؤلاء المؤدبون ينتقون من كبار الأدباء ممن يوثق بدينهم وعلمهم وقدراتهم التربوية، كما كانوا موضع احترام وتقدير، وحظوا بمكانة طيبة ورعاية خاصة، بل حصل البعض منهم علي مراكز رفيعة، كما كانوا يتقاضون أجوراً سخية ومكافآت كبيرة في المناسبات^٤. وفي أغلب الأحيان كان يخصص جناح للمؤدب يعيش فيه ليكون إشرافه على الأمير أحكم وأشمل^٥. لذلك نجد السلاطين والعظماء يهتمون بمؤدبي أولادهم اهتماماً عظيماً، وارتفعوا بمستواهم الاجتماعي إلى درجة تناسب مكانهم من الأمراء.

١- خواندمير: دستور الوزراء، ص ٢٣٦.

٢- أحمد شلبى: المرجع نفسه، ص ٣٦.

٣- عبد الله العمرى: تاريخ العلم عند العرب، ص ٢١.

٤- منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٥٣.

٥- أحمد جاب الله شلبى: التعليم والتربية عند المسلمين، ص ٥٥.

أما مناهج التعليم لهذه الطبقة فكان يتلّون تبعًا لمستقبل المتعلمين وما ينتظرهم من مهام، فبالإضافة للأسس العامة لمناهج التعليم التي توضع لجميع الصبيان، كان هناك منهج آخر يشارك الآباء في وضعه وتحديد له ليكون ملائمًا للأهداف والمسؤوليات التي ستواجه الأمير في مستقبل حياته^١. وعندما يتقدم الصبي في السن يعهد بتأديبه إلى علماء من ذوى الاختصاص كلاً في مجال تخصصه، وربما جعل هؤلاء تحت إشراف عالم كبير يرجعون إليه^٢.

ومن أهم مؤدبي سلاطين الدولة الغزنوية "أبو العباس الفضل بن علي الإسفرايني" مؤدب السلطان "محمود" (٤٢١: ٣٨٨هـ / ١٠٣٠: ٩٩٨م)، تولى تأديبه منذ الصغر وحتى تولى الحكم، وكان له دور بارز في إعداداه لتولى مهام منصبه حتى استطاع تثبيت أركان دولته والارتفاع بمكانتها^٣.

ومن أهمهم أيضًا "أبو أحمد محمد بن أحمد الإستعداديزي" (٤٣٩هـ / ١٠٤٧م) مؤدب أولاد السلطان "محمود"، وهو من علماء نسف الأجلاء، توجه إلى مدينة "غزة" واشتغل بتأديب أولاد السلطان "محمود"^٤. كما عهد السلطان "محمود" أيضًا إلى المؤدب "أبو يعقوب يوسف" بتربية إبنه "مسعود" و"محمد"^٥. ومما قام بتأديبها أيضًا الإمام القاضي "صاعد"^٦، كما عهد إلي "سالمى" أستاذ البيهقي بتأديبها وتأديب أخوه الأمير

^١ - رحيم كاظم، عواطف محمد العربى: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٤٩.

^٢ - آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٤٠م، ص ٣٠٨.

^٣ - الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٥٠٤.

^٤ - السمعاني: الأنساب، ج ١، ص ١٣٤.

^٥ - نعمة علي مرسى: المرأة المسلمة في آسيا الوسطى في القرنين الخامس والسادس الهجريين، ص ٢٤٢.

^٦ - البيهقي: تاريخ البيهقي، ٢١٣.

"يوسف"، وقد حظى "مسعود" لأنه ولي عهد أبيه بمكانة خاصة في هذه الفترة، وكان عمره حين ذاك أربعة عشر عامًا^١.

المساجد أما المرحلة الثانية من مراحل التعليم الإسلامي فكانت تتم في المسجد، الذى ظل المعهد التربوى الأول بلا منازع واستمر في أداء وظيفته حتى بعد ظهور معاهد تربوية أخرى، باعتباره المكان الأمثل للتعليم وخاصةً تعليم العلوم الدينية.

لعبت المساجد دورًا عظيمًا في نشر العلوم والثقافة وفي المساهمة في تكوين الحضارة الإسلامية، فهي المنارات التي انبثق منها نور العلم في الدولة الإسلامية عبر مراحلها المختلفة، لأنها مكان العبادة والتعلم، وموطن التذكير والتوجيه، وفيها وضعت أسس الثقافة الإسلامية، كان يدرس فيها العلوم الدينية من علوم القرآن وعلوم السنة والشريعة، وكل علم تحتاج إليه الأمة الإسلامية^٢. ولعل السبب في جعل المسجد هو المركز الأساسى لنشر الثقافة في العالم الإسلامى، هو أن العلم ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالدين الإسلامى، فاضطلع المسجد عن جدارة واستحقاق بأعباء نشر الدعوة الإسلامية ونشر العلم في نفس الوقت، ولأن المسجد هو بيت الله ولحرص أولى الأمر على نشر مجانية التعليم فكان المسجد هو المكان الأنسب لذلك^٣.

عقدت مجالس العلم في المساجد، فكان العلماء والفقهاء والأدباء يجلسون في المساجد وحوهم طلابهم، وسميت مثل هذه المجالس بحلقات العلم لأن الشيخ كان يجلس بالقرب من الحائط أو أحد أعمدة المسجد ثم يجلس الطلاب حوله على شكل حلقة أو دائرة، ويدونون ما يلقى عليهم^٤. وكانت تلك الحلقات مفتوحة لمن يشاء رجلاً كان أو

^١ - المصدر السابق، ص ١١٥، ١١٦.

^٢ - عبد العزيز محمد المليم: رسالة المسجد في الإسلام، ١٩٨٧م، ص ١٩.

^٣ - على محمد مختار: دور المسجد في الإسلام، مجلة دعوة الحق، العدد ١٤٤، السنة الثانية، ١٤٠٢هـ، ص ٦٤.

^٤ - ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٢٦٤. عبد الله العمرى: تاريخ العلم عند العرب، ص ٢٠. منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٥٤.

امرأة، كبيراً أو صغيراً، فالأبواب مفتوحة لكل طارق لا فرق بين جنس وآخر أو لون وغيره. ولم تقتصر تلك الحلقات على الدراسات الدينية فحسب وإنما تعدتها إلى سواها من المعارف العلمية. وكانت المناقشات تتم في تلك الحلقات بين الطلاب وأساتذتهم، فالطالب له الحق في سؤال أستاذه ومعارضته، وهذا النظام كان أكبر دافع للأساتذة للإعداد المتقن لدروسهم والتعمق فيها، كما كان للطالب الحق في اختيار الحلقة التي يرغب في الجلوس فيها^١. تلك الحلقات والتي نبعت من المساجد كانت أقدم ما عرفه الناس في تلقى العلم، تخرج فيها الكثير من خيرة العلماء.

ولما كان لعمارة المساجد أجرٌ عظيم، كما أنها عملٌ مرغوبٌ فيه اجتماعياً فقد أقبل عليه ذوى السلطان والنفوذ. ويأتى سلاطين "غزة" على رأس المهتمين ببناء المساجد في كل المناطق الخاضعة لحكمهم، وأولوا عناية خاصة بعاصمتهم "غزة"^٢ التي أطلق عليها مدينة "الاثنى عشر ألف مسجد ومدرسة"^٣. ومما يدل على اهتمام سلاطين الدولة الغزنوية ببناء المساجد قول الشاعر الغزنوى "محمود سعد سلمان":

الملك في ساعة تقرر والفتح في لحظة تيسر
ولما تمت ليد الدولة قوتها وضعت علي الفلك قدم المنبر

والبيت الثانى يحمل دلالة مهمة وهى أن الدولة الغزنوية لم تقم بحد السيف وحده، وإنما أيضاً بقلوب يعمرها الإيمان ويغمرها اليقين، وما ذاك إلا لأنها بعد أن اجتمعت قوتها وارتفعت مكانتها سرعان ما اتخذت من الدين القويم شعاراً لها، ولذلك أقامت المساجد

^١ - زيفريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٩٧.

^٢ - جورج المقدسى: نشأة الكليات، ص ٢٥.

^٣ - اسفزارى: روضات الجنات في أوصاف مدينة هرات، ص ٣٦١. (وربما كان المؤلف مبالغاً في هذا الرقم الذى وصف به المدينة لإعجابه الشديد بها، فالقاهرة مثلاً قليل عنها مدينة الألف مئذنة بمساحتها المعروفة فما بال مدینه كهذه؟! وربما يدخل في هذا الإحصاء المساجد التى كانت فى المنازل أو الملحقة بالمنشآت التجارية والمساجد الصغيرة والمساجد الجامعة ومساجد المدارس ومنشآت الصوفية)

العامرة بالمؤمنين، والشاعر هنا يعتبر إقامة المساجد دليل على عظمة الدولة، فالمسجد هو رمز الإسلام ومركز العلم والثقافة^١.

أما أهم مساجد مدينة "غزة" فهو المسجد الجامع الذي بناه السلطان "محمود" (٤٢١: ٣٨٨ هـ / ١٠٣٠: ٩٩٨ م) في وسط المدينة بعد عودته من غزوة "قنوج" بالهند^٢، وسماه "عروس الفلك"^٣، وأنفق عليه كل ما غنمه في هذه الغزوة، وحمل إليه الأعمدة والجذوع من بلاد الهند، وفرشت ساحته بالمرمر، وازدانت جدرانته وسقفه بالنقوش ذات الألوان الرائعة، فطليت نقوشه بالذهب الذي بذله السلطان بغير حساب حتى ضاقت به أوعية الصاغة^٤، وأفرد السلطان لخاصته بيتاً في المسجد، وأمام البيت مقصورة تسع ثلاثة آلاف غلام^٥.

لم يكن السلطان "محمود" هو الوحيد الذي اهتم ببناء المساجد في مدينة "غزة"، ولكن سعي أبنائه من السلاطين والأمراء، وكذلك أعيان المدينة في بناء المساجد والتي كانت تفوق عن الحصر^٦.

خرجت تلك المؤسسات التعليمية إلى حيز الوجود بعد تقنين البر لأغراض التعليم في نظام الوقف، فالوقف جعل معاهد العلم تكتسب صفة الدوام والاستمرار، وهياً لها الاستقلال عن الواقف نفسه، وقد حدث هذا النوع من أعمال البر على أوسع نطاق في

^١ - حسين حبيب المصرى: المسجد بين شعراء العربية والفارسية، ص ١٧٠.

^٢ - ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٩٧. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٢٦٧. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٩٢.

^٣ - محمد عبد الحميد الحمد: حياة البيروني، ص ٤٢، ٢٢٣.

Fraser-Tytler: Afghanistan, A Study of Political Developments in Central Asia, p٢٦.

^٤ - ميرخواند: روضة الصفا، ص ١٥١. هندوشاه: تاريخ فرشته، ص ٣٠.

Lane Poole: Mediaeval India Under Mohammedan Rule (A.D. ٧١٢-١٧٦٤) pp٣١، ٣٢.

^٥ - أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ١، ص ٢٨٠. استاد خليلي: المرجع نفسه، ص ١٤٧.

^٦ - ميرخواند: المصدر نفسه والصفحة. المستوفي القزويني: تاريخ كزیده، ص ٤١.

القرن الرابع الهجري، والشئ المؤكد أن المسجد كان النمط الأول لمعهد العلم في الإسلام، وأنه كان مؤسسة خيرية يحكمها نظام الوقف، والذي كان يصرف من ريعه رواتب المدرسين وغير ذلك من متطلبات المسجد. وخير مثال على ذلك أن السلطان "محمود" أوقف على المسجد الجامع بغزة العديد من القرى والضياح لينفق من ريعها على متطلبات المسجد والطلاب^١.

هذا وقد أدت المساجد في مدينة "غزة" دورًا رائدًا في نشر العلوم الإسلامية ليس في "غزة" فحسب بل في بث روح المعرفة في نفوس المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي، حيث كان طلاب العلم من مختلف الأنحاء يلتقون حول أساتذتهم في حلقات ينهلون من علمهم، كما تخرج من تلك المساجد العديد من علماء الإسلام الذين أثروا الفكر الإسلامي بمؤلفاتهم القيمة وتراثهم الخالد الذي خلفوه لنا.

يتضح لنا مما سبق أن المسجد كان أساس النهضة العلمية، فمن خلاله أشرقت شمس المعرفة منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، وبمنظرة فاحصة لتاريخ نهضتنا الإسلامية في العالم الإسلامي وفي الدولة الغزنوية يتبين أهمية لنا دور المسجد ورسالته العظيمة في بناء تلك النهضة.

المدارس

كان لتغيير طريقة التعليم وتطور العلوم الإسلامية وتقدم المعارف سببًا في إيجاد نوع جديد من المؤسسات التعليمية، ذلك أنه لما انتشرت طريقة التدريس نشأت المدارس كمركز تعليمي أوسع، فالمسجد وإن قام بدور هام في الحياة العلمية إلا أنه كان مركزًا دينيًا

^١ -خواندمير: حبيب السير، ص ١٥١. حسين علي ممتحن: رازبقای تمدن وفرهنگ ایران، جند مقاله تاریخی دانشیا دانشگاه ملی ایران، ص ١٢. ذبیح الله صفا: تاریخ تعلیم و تربیت ایران از قرن هفتم تا قرن دهم، ص ١٥٨.

بالدرجة الأولى، فالتدريس بما يتبعه من مناظرة ومجادلة وبحث ونقاش، كلها أمور كانت تؤدي إلى إزعاج المصلين الذين تطرق آذانهم أصوات تلك المناقشات^١.

اختلفت المدارس عن المساجد وعن غيرها من المؤسسات التعليمية الأخرى، فمن أبرز معالمها أنها تتألف من إيوان واحد أو أكثر تبعاً لما هي مخصصة له من الدروس الفقهية إذا كانت علي مذهب واحد أو على عدة مذاهب^٢. ومن فناء مستطيل الشكل وصفوف من الغرف على كل جانب لكل طالب غرفة خاصة به، كما تضم إيوانين في الصدر والظهر أو إيواناً واحداً في مواجهة المدخل^٣، كذلك أحتوت في أغلب الأحوال علي بهو مكشوف وفسيح، كما نظمت في كل مدرسة قاعات فسيحة تتناسب سياستها مع الغرض الذي أعدت له كخزانات الكتب أو قاعات لمذاكرة الدروس وتناول الطعام، كما تضم كل مدرسة مباني داخل حدودها وفي كل جانب من جوانبها أو ركن من أركانها كالمطبخ والحمام، وغير ذلك من المنافع العامة للعاملين والطلاب بها^٤.

اهتم السلاطين والأمراء الغزنويون ببناء المدارس منذ تأسيس دولتهم في "غزة"، وذلك لمقاومة المذهب الشيعي ونشر المذهب السني^٥، بالإضافة إلى حاجة الدولة إلى

^١ - أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٩٦. آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص ٢٩٩.

^٢ - طه الولي: المساجد في الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٨ م، ص ٨٤.

^٣ - آوقطاي أصلان: فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد محمد عيسى، أستانبول، مطبعة رنكلر، ١٩٨٧ م، ص ٤٦.

^٤ - سعيد إسماعيل علي: معاهد التربية الإسلامية، ص ٣١٩، ٣٢٠. ناجي معروف: المدخل في تاريخ الحضارة العربية، ط ٣، بغداد، ١٩٥٢ م، ص ٢٣١.

Behcet Unsal: Turkish Islamic Architecture in Seljuk and Ottoman Time (١٠٧١-١٩٢٣)، London، ١٩٥٩، p٣٠.

Hillen Brand: Madrasahs Islamic Period، p١٦٦.

^٥ - آوقطاي أصلان: المرجع نفسه والصفحة. أرنت كونل: الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، بيروت، دار صادر، ١٩٦٦ م، ص ٦٣.

الموظفين من قضاة وعمال وكتاب، يتخرجون من مدارس منهجية يتفهمون عقائد الدين الإسلامي، ويتعودوا الطاعة والنظام ضمن مناهج المدرسة، فالمدارس في الإسلام كانت دينية بالدرجة الأولى^١.

ومن تلك المدارس التي أنشئت في عهد الدولة الغزنوية مدرسة "باب بستان"، وكان القاضي "أبو صالح التباني" (ت ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م) إماماً فيها علي مذهب الإمام "أبي حنيفة"، وقد أرسل السلطان "محمود" سنة (٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) إليه بعد استيلائه على خراسان لكي يحضر إلى غزنة ويقوم بالتدريس في تلك المدرسة، تخرج على يديه العديد من العلماء، منهم قاضي القضاة "أبو سليمان بن داود بن يونس"، وكانت منزلة أبي صالح هذا لدى السلطان محمود من الرفعة بحيث قال عند وفاته لوزيره الخواجه أبي العباس الإسفرايني^٢: "أذهب إلى مدرسة هذا الإمام لإقامة مأتمه، إذ ليس له ولد يقوم بذلك وكنت

^١ - Hillen Brand: Op,cit ,p١٦٦.

^٢ - الإسفرايني: هو أبو العباس الفضل بن أحمد من كبار رجال الدولة الغزنوية، كان أديبا وشاعرا، وهو أول من تولى الوزارة للسلطان "محمود"، وفي أول أمره كان من كتاب أبي الحسن فائق المعروف بفائق الخالص (ت ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م)، ثم أصبح بعد ذلك صاحب بريد مرو، وحين تغلب "سبكتكين" سنة (٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) علي أبي علي سيمجور وفائق اللذان تمردا بخراسان، طلب "محمود" من الأمير "نوح الساماني" أبا العباس الفضل "ليعمل في الوزارة وظل = وزيراً للسلطان "محمود" من سنة (٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) إلي سنة (٤٠١ هـ / ١٠١٠ م)، وفي هذه السنة عقب الخلاف الذي وقع بينه وبين "محمود" بسبب قلة الخراج، وحاجة السلطان الملحة إلي المال، ذهب إلى قلعة "غزنة"، وكتب له رسالة سمي نفسه فيها بالمحبوس فانتهر "محمود" الفرصة وصادر أمواله، وظل في تلك القلعة حتي هاجمه الناس، وقتلوه في غيبة "محمود" في الهند سنة (٤٠٤ هـ / ١٠١٢ م) (ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٥٣٨. على الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٧١. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٢٨٢)

قد اعتزمت القيام بنفسى بهذا الواجب استجابة لضميرى، ولكن نظرًا لأن الناس قد يلوموننى أو يرون فى هذا عيبًا رأيت أن تقوم بذلك^١.

وهناك المدرسة التى قام السلطان "محمود" ببناءها بجوار المسجد الجامع، وجعل الشاعر العظيم "العنصرى" عميدًا لها^٢، وأطلق عليها دار العلم^٣. اجتمع فى تلك المدرسة من الشعراء العسجدى والفرخى والفردوسى وغيرهم من أكابر علماء العصر وأدبائه^٤، وقد قصد طلاب العلم هذه المدرسة من جميع أنحاء العالم الإسلامى^٥. كما احتوت على مكتبة علمية ضخمة كان يتردد عليها طلاب العلم من كل البلاد للتزود بالعلم والمعرفة^٦.

هناك أيضًا العديد من المدارس التى أنشأها سلاطين وأمراء الدولة الغزنوية، ومنهم الأمير "السعيد نصر" والسلطان "مسعود" وغيرهما، ولم يقتصر نشاطهم هذا على مدينة "غزة" فحسب، وإنما امتد إلى كافة البقاع التابعة للدولة الغزنوية^٧، ويتضح مما سبق أن الغزنويين سبقوا الوزير السلجوقى "نظام الملك"^٨ فى إنشاء المدارس، فقد ذهب عدد غير

^١ - البيهقى: تاريخ البيهقى، ص ٢١٣، ٢١٤. ناجي معروف: مدارس قبل النظامية، مجلة المجمع العلمى العراقى، مجلد ٢٢، لسنة ١٩٧٣م، ص ١٢٠.

^٢ - يوسف حسين خان: نظام التعليم فى الهند خلال العصور الوسطى، مجلة ثقافة الهند، العدد ٢، ١٩٦١م، ص ٦١.

^٣ - الهجویری: كشف المحجوب، ص ٢٣.

^٤ - أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، ج ٢، ص ٥٩٠.

^٥ - يوسف حسين خان: المرجع نفسه والصفحة.

^٦ - ميرخواند: روضة الصفاء، ص ١٥١. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه والجزء، ص ٢٦٧، ٢٦٨. محمد حسن عبد الكريم: خراسان فى العصر الغزنوى، الأردن، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، (د.ت)، ص ٢٥٧.

^٧ - ميرخواند: المصدر نفسه، ص ١٦٠، ١٦٤.

^٨ - نظام الملك: هو الحسن بن على بن إسحاق وزير السلطان ألب أرسلان وابنه السلطان ملكشاه، ولد بطوس سنة (٤٠٨ هـ / ١٠١٧م)، ترقى فى المناصب حتى وصل إلى منصب الوزارة، وكانت أيامه دولة أهل العلم، اغتاله ديلمى من الإسماعيلية سنة (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م) (ميرخواند: المصدر نفسه،

قليل من المؤرخين والباحثين إلى أن نظام الملك هو أول من أسس المدارس في الإسلام في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري^١.

قام بالتدريس في تلك المدارس علماء وفقهاء وأدباء لهم شهرة كبيرة في المشرق الإسلامي، وخاصةً بعد أن توفرت لهم سبل الراحة من الناحية العلمية والمادية، لأنهم كانوا يتقاضون أثناء دراستهم رواتب شهرية^٢، كانت تلك الرواتب تأخذ من الخزانة العامة أو من إيرادات الأوقاف التي كانت عادة تعين لينفق من ريعها على تلك المنشآت، وكانت تلك المرتبات تختلف باختلاف المدرس وريع الوقف، وعلى العموم عاش هؤلاء العلماء في بحبوحة من العيش، ونعموا بمستوي مالي مرموق، إذ أضفى عليهم السلاطين والأمرأ كثير من رعايتهم، وأمدوهم بهبات متعددة لا تنقطع^٣.

أدى انتشار المدارس في "غزة" إلى زيادة عدد العلماء والطلبة، مما استدعى زيادة في النفقات التي تحتاجها تلك المدارس، وخاصة إذا علمنا أن الطلبة كانوا يتلقون المساعدات الكثيرة المتمثلة في توفير الطعام وأماكن الإقامة وغيرها من المصروفات، مما ترتب عليه زيادة الأوقاف التي ينفق من ريعها على تلك المدارس^٤.

كان من خصائص المدارس في تلك الفترة أن تنشأ عادةً لفرقة معينة من الفرق الإسلامية، ولم يكن يسمح لأتباع الفرق الأخرى بالدخول فيها، وكان يدرس فيها

ص ٢٦٥. مصطفى صدرى: شرح حال رجال ومشاهير نامى إيران، جاب أول، طهران، ١٣٧٤، (ص ٢٤٨)

١- السيوطى: حسن المحاضرة، ج ٢، مصر، مطبعة إدارة الوطن، ١٨٨١م، ص ١٨٤.

Clive Irving: Crossroads of Civilization ٣٠٠٠ years of Persian History, London, ١٩٧٩, p ١١٦.

٢- العتبى: تاريخ اليمىنى، ج ٢، ص ٢٩٩، ٣٠٠. أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ١، ص ٢٨٠.

٣- ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٢٥٠. أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٢٢٧.

٤- خواندمير: حبيب السير، ص ١٥١، ١٦٠.

البحوث الفقهية والكلامية لتلك الفرقة، والدليل على ذلك أنه عندما قام أحد مشاهير "بيهق" ويدعى "أبو القاسم علي بن محمد بن عمر" ببناء أربع مدارس كبرى في نيسابور للكرامية والشيعة والحنفية والشافعية، ووصل هذا الخبر إلى السلطان "محمود" فأحضره إلى مدينة غزة سنة (١٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م) وعاتبه قائلاً لماذا لا تنصر المذهب الذي تنتمي إليه، وتبني مدرسة لأئمة هذا المذهب؟! ومن ذلك نرى أن بناء أى شخص لمدرسة تدرس بها جميع المذاهب تتعارض مع مذهبه، فإنه ينظر إليه كمنافق ولا يتقرب بعمله إلى الله تعالى^١.

مما سبق يتضح أن الغزنويين أنشأوا العديد من المدارس في مدينة "غزة" تلك المدارس أنجبت علماء حملوا مشاعل الهداية ونور العلم والمعرفة إلى الناس أجمعين.

المكتبات^٢

تعتبر الكتب في أى أمة من الأمم مظهر من مظاهرها الحضارية، بل لعلها أهم تلك المظاهر وأبعدها أثراً، لأنها الوعاء الذى يضم ثمرات عقول أبنائها وإبداعاتهم في مختلف العلوم والفنون، لذلك شغف المسلمون بالقراءة ومطالعة الكتب واقتنائها، ونالت منهم كل تقدير وإعجاب، فكثيراً ما نجدهم يهتمون بالكتاب وفضله ومميزاته، وعن فضيلة الكتب قالوا:-

أمينون مأمونون غيبٌ ومشهدٌ

هم جلساء ما نمل حديثهم

^١ - ذبيح الله صفا: المرجع نفسه والجزء، ص ٢٦٧.

^٢ - المكتبات: كانت تسمى بأسماء تشتمل على ستة ألفاظ ثلاثة منها تتعلق بالموضع أو المكان وهى "بيت، خزانة، دار"، والثلاثة الأخرى تتعلق بالمحتوى "حكمة، علم، كتب"، وعن طريق الجمع بين هذه الألفاظ هناك سبعة أسماء اصطلاحية كانت تسمى بها المكتبات "بيت الحكمة و خزانة الحكمة و دار الحكمة و دار العلم و دار الكتب و خزانة الكتب و بيت الكتب"، وجميع الأسماء المركبة من هذه الألفاظ، وكلها كانت مستعملة في الواقع في ذلك الوقت. جورج المقدسى: نشأة الكليات، ص ٣٢.

إذا ما خلونا كان خير حديثهم
مُعِيناً علي نفي الموموم مؤيداً
يفيدوننا من علمهم علم ما مضي
وعقلاً وتأدياً ورأياً وسودداً^١

ويقول أبو الفتح علي بن محمد الكاتب البستي في وصف الكتاب:-

بنفسى من أهدي إلى كتابه
فأهدى لى الدنيا مع الدين في درج
كتاب معانيه خلال سطوره
لآلىء في درج كواكب في برج^٢

أما عن أنواع تلك الكتب فقد امتازت بالتنوع، فمنها الكتب المختصرة والموسوعات الضخمة، ومنها جداول للطلاب في شكل أسئلة وأجوبة، ومنها كتب تمهيدية ولوائح جامعة ضمت بين دفتيها كل معارف العصور السابقة والعصور الحاضرة، تلك الكتب كانت منظمة ومتسلسلة ومشروحة في تفصيل جعل منها ثمرة سائغة في متناول كل طالب علم^٣.

ترتب على هذا التقدير وذلك الإعجاب وتلك المميزات، الاهتمام بإنشاء دور تحوى تلك الكتب، فانتشرت المكتبات في جميع البلدان الإسلامية، وتسابق السلاطين والأمراء في إقامة المكتبات الضخمة وتزويدها بكل ما تنتجه قرائح العلماء في مختلف فروع المعرفة، لتسهيل المطالعة وتيسيرها للراغبين وبخاصة غير القادرين منهم على اقتناء الكتب بسبب غلائها وندرتها آنذاك^٤.

ولأن المكتبة مكاناً للبحث والدرس والتأليف اعتبرت من المؤسسات التعليمية في تلك الفترة، ومع الازدهار الثقافي الذي شهدته مدينة "غزة"، واتساع أفق سلاطينها العقلي

١- أحمد شلبي: المرجع نفسه، ص ١٢١، ١٢٢.

٢- الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٣٥٣.

٣- زغيريد هونكه: شمس العرب تسطع علي الغرب، ص ٢٨٦.

٤- أحمد فؤاد باشا: التراث العلمى للحضارة الإسلامية، ص ٣٤.

٥- رحيم كاظم، عواطف العربى: الحضارة العربية والإسلامية، ص ١٥٩.

وتقدمهم الحضاري وحبهم للعلم والمعرفة، زاد بنفس القدر الاهتمام بإنشاء المكتبات فزاد عددها وتنوعت أغراضها حتي شملت جميع الأغراض التي تؤسس المكتبات من أجلها فهناك المكتبات العامة والخاصة والمكتبات السلطانية.

تعتبر المكتبات العامة هي المقياس الحقيقي لتقدم ورقي الأمم، وكثرتها وسهولة ارتيادها دليل على ثقافة الأمة وحبها للعلم، لذلك قلما تخلو بلدة أو قرية أو ناحية من مكتبة عامة مفتوحة للجميع، دخولها والمطالعة فيها مجانياً^١. وقد أنشئت تلك المكتبات بالمساجد منذ اتخذ المسلمون المسجد مكاناً للدراسة لتكون في متناول طلاب العلم، ثم أنشئت متصلة بالمدارس عندما بدأت في الظهور، وكانت المكتبات من هذا النوع كثيرة جداً بحيث كان من الصعب أن نجد مسجداً أو مدرسة دون أن تزود بمكتبة تحتوي على كافة أنواع الكتب ليرجع إليها الطلاب والباحثون^٢.

سعى السلطان "محمود" (٣٨٨: ٤٢١ هـ / ١٠٣٠: ٩٩٨ م) لإقامة المكتبات العامة في حاضرة دولته لتكون مرجعاً للعلماء والأدباء حين الحاجة إليها، لذلك أضاف إلى المسجد الجامع بغزة مدرسة، وأضاف إليها مكتبة مزودة بنفائس الكتب وغرائبها من المؤلفات لجميع العلماء والأدباء وأئمة الفقه^٣. واعتبرت تلك المكتبة من المكتبات الفريدة في تلك الفترة لأنها احتوت على مجموعة قيمة من الكتب في جميع فروع العلم وأقسام المعرفة، وكانت جميعها من المؤلفات القديمة والنادرة التي لم يتوفر وجودها إلا في مدينة "غزة"^٤.

ولو تساءلنا كيف استطاع السلطان "محمود" الحصول على تلك الكتب القيمة، نقول أنه استطاع الحصول عليها بطرق متعددة أهمها المصادرة، فعندما قام السلطان "محمود"

١- محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص ٢٧.

٢- ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٢٥١.

٣- العتبي: تاريخ اليمنى، ج ٢، ص ٢٩١، ٢٩٩. بدر عبد الرحمن: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق، ص ٣٥٥. استاد خليلي: سلطنة غزنويان، ص ١٤٧.

٤- يوسف حسين خان: نظام التعليم في الهند خلال العصور الوسطى، ص ٦١.

٥- الهجویری: كشف المحجوب، ص ٢٣.

بفتح "الري" سنة (٤٢٠هـ / ١٠٢٩م) كان صاحبها "مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه" مشغولاً عن أمور بلده بقراءة الكتب ونسخها، وكان يمتلك مكتبة ضخمة حوت مختلف فروع المعرفة، فلما فتحها السلطان "محمود" أحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال، وأخذ من الكتب ما ساوى مائة جمل إلى خزائنه في مدينة غزنة، وفهرستها وحدها تقع في عشرة مجلدات^١.

كذلك عندما دخل جنود السلطان "مسعود" (٤٣٢: ٤٢١هـ / ١٠٤٠: ١٠٣٠م) سنة (٤٢٥هـ / ١٠٣٣م) أصبهان استولى "أبو سهل الحمداني" علي خزائن "علاء الدولة بن كاكوية"، وكان "ابن سينا" في خدمته فأخذت كتبه وحملت إلى "غزنة"، وجعلت في خزائن كتبها^٢. لذلك كانت مدينة "غزنة" تعج بالكتب والتي تبدو واضحة في آثار الشعراء والعلماء علي السواء^٣، ولكن طريقة المصادرة كانت طريقة استثنائية وليست القاعدة في إغناء المكتبات بالكتب، وإنما القاعدة الرئيسية في إغناء المكتبات بالكتب هي شراء الكتب ونسخها ووقفها^٤.

حرص الوزراء والعظماء والكثير من العلماء علي اقتناء مجموعات ضخمة من الكتب في مكتباتهم الخاصة، وسميت بالخاصة لأنها تخص أفراداً معينين أنشأوها لمصلحتهم ومن أموالهم الخاصة^٥، ولم تكن إقامة المكتبات الخاصة مقصورة على هؤلاء فقط بل كانت هواية الناس جميعاً وعلى اختلاف طبقاتهم، فمتوسط ما تحتويه مكتبة خاصة لمسلم في القرن الرابع الهجري كان أكثر مما تحتويه مكتبات الغرب مجتمعة^٦.

١- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٦، ص ٢٥٩. آدم متز: الحضارة الإسلامية، ص ٢٩.

Bosworth: The Development of Persian Culture under the Early Ghaznavids, p38.

٢- البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام، ص ٦٧، ٦٨. ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٢١١.

٣- علي الشامي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ١٨٤.

٤- محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص ١٦٤.

٥- المرجع السابق، ص ٨٦.

٦- أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية، ص ٣٤، ٣٥.

كان الصوفي الكبير "الهجویری" ممن جمع خزانة كتب قيمة واهتم بها كل الاهتمام، فقد كان يمتلك مكتبة قيمة في "غزة"، وقد أبدى أسفه لأنه عندما عاد يؤلف كتابه "كشف المحجوب" في مدينة "لاهور" بالهند، لم تكن في متناول يده كتبه التي تركها في مدينة "غزة"^١.

ومن أنواع المكتبات الأخرى التي وجدت في مدينة "غزة" المكتبات السلطانية، وهي مكتبات كان ينشؤها السلاطين والأمراء والحكام من أجل أنفسهم، جعلوها حلقات للمناظرة والسمر في مختلف العلوم. وجدت تلك المكتبات متى وجد سلطان أو أمير أو حاكم محباً للعلوم والآداب راغباً في الكتب وأصحابها^٢، فهي تعكس اهتمام الحكام أنفسهم بالثقافة لأنها كانت للاستعمال الشخصي في الأعم الأغلب، وإذا فتحت أبوابها فلفتة معينة من الناس.

عُرف عن سلاطين "غزة" حبهم للعلم واهتمامهم بالعلوم والآداب، لذلك اهتموا بإنشاء المكتبات السلطانية، ومنهم السلطان "مسعود الثالث" (٥٠٨: ٤٩٢هـ/ ١١١٤: ١٠٩٨م)، والذي أسند أمر رعاية دار الكتب السلطانية إلى الشاعر العظيم "مسعود سعد سلمان"، وكان هذا الشاعر سعيداً جداً بهذا العمل الذي تولاه فشكر السلطان عليه كثيراً، ووعد بأن يبذل غاية جهده في الاعتناء بالكتب ورعايتها وتنظيم علومها وفنونها، بل لقد ذهب في شكره للسلطان إلى القول بأنه سوف ينفض الغبار عنها بوجهه. يقول الشاعر في هذا المعنى ما ترجمته:-

يا مولای إن لسان عبدك، في الثناء عليك وشكرك مثل السحاب الذي يمطر سكرًا

عبدك يزين الآن دار الكتب وينظمها، بتوفيق الله الفرد الجبار

ولسوف يجعلها تفوق من حيث المقدار، كل دار للكتب توجد في العالم

^١ - الهجویری: كشف المحجوب، ص ٤١.

^٢ - محمد ماهر حمادة: المرجع نفسه، ص ١٠٨.

فهو ينهض كل صباح مبتهجاً فرحاً، فيكنس تراب كل حجرة بصفحة وجهه.

ويعمرها بروحه ويعلي من شأنها، فليس هناك مهندس معماري لها مثل عبدك.

كما كانت تلك المكتبات منظمة تنظيمًا رائعًا جيدًا، بحيث مكنها هذا التنظيم من خدمة قرائها أفضل خدمة، وفي ذلك يقول الشاعر "مسعود سعد سلمان" ما ترجمته:ـ

فهو ينظم كل علم ويرتبه بحيث يكون كل شخص طالبا لنوع من العلوم والفنون.

وهو يملأ جميع حجراتها وأرففها، بكتب التفسير والأخبار والسير والأشعار^١

أما أبنية المكتبات فقد اهتم بها المسلمون اهتماماً عظيماً، فكان البناء مزوداً بحجرات متعددة يربط بينها أروقة فسيحة أو رفوف تثبت بجوار الجدران لتوضع فيها الكتب^٢، وتوضع الكتب على الأرفف مستلقية الواحد فوق الآخر، بحيث تكون القطع الصغيرة فوق القطع الكبيرة حتي لا تسقط^٣. كذلك لم تخل مكتبة ذات شأن سواء كانت عامة أو خاصة من فهارس يرجع إليها ليسهل استعمال كتبها على الدارسين والباحثين.

كانت الفهارس علي نوعين إما أن تكون مكتوبة في مجلدات تستعمل كالكتب، فيرجع إليها الباحث من أجل معرفة محتويات المكتبة، وإما أن تكون أسماء الكتب والمؤلفين مكتوبة علي لائحة معلقة علي مدخل كل قسم من الأقسام، وكلاً النوعين كان شائع الاستخدام^٤. ويسجل "أبو الحسن البيهقي" أنه رأى بنفسه فهارس كتب "الصاحب بن عباد" التي استولي عليها السلطان "محمود الغزنوي" (٤٢١: ٣٨٨هـ/ ٩٩٨: ١٠٣٠م) وأن تلك الفهارس كانت تقع في عشرة مجلدات^٥. كذلك كان لكل عالم عظيم فهرسة لكتبه،

١- طلعت محمد اسماعيل: مسعود سعد سلمان، ص ١٧١

٢- أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ١٢٩.

٣- ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص ١٧١، ١٧٢. أحمد شلبي: المرجع نفسه، ص ١٣٠.

٤- محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص ١٥٤.

٥- البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٤٠٦.

فقد ذكر "ياقوت الحموي" أثناء حديثه عن "البیرونی" أنه شاهد فهرست كتبه في وقف الجامع "بمرو" في ستين ورقة^١.

ومن آداب التعامل مع الكتب، يقول ابن جماعة: "ولا يجعل الكتاب خزانة للكراريس أو غيرها أو مخدة أو مروحة، ولا مكبسا ولا مسندا ولا متكأ.... وإعارة الكتب للطلبة والمشيخة أمر قد استحسنه الأولون والآخرون لما فيه من نشر العلم، وإفادة الناس عامة، حتى عد من صفات العلماء المحموده. ومن آداب التعامل مع الكتب عند شرائها أو استعارتها أو إعارتها أن يتفقد المشتري أو المستعير أو مالکها بأن يتعهد أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه ويصفح أوراقه، ولعل من الأعمال الحسنة التي كان يقوم بها بعض العلماء وقف الكتب رجاء الأجر، وللمحافظة عليها من التلف"^٢.

كان يعمل بالمكتبات العامة موظفون يرأسهم الخازن، وهو أمين المكتبة والذي كان من أصحاب العلم والمعرفة والمكانة الرفيعة، والمترجمون والنساخ والمجلدون، والمناولون وهم الذين يرشدون القراء إلى موضع الكتب على الرفوف أو إحضار الكتب لهم من أماكنها إلى حجرات المطالعة^٣.

كانت الأوقاف هي المصدر الذي ينفق منه على المكتبات وما يلزمها، ويشمل ذلك ترميمها وتزويدها بالكتب ودفع مرتبات الموظفين، وتزويدها بالبسط والسجاجيد والستائر وجميع أنواع الأثاث الذي يساعد الإنسان على المطالعة ويوفر له الراحة، وقد درج السلاطين والعلماء والأغنياء على أن يوقفوا أشياء كثيرة على المساجد والمدارس، وقد خصص قسم كبير من تلك الأوقاف للإنفاق على المكتبات^٤.

١- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ١٧، ص ١٨٥.

٢- ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص ٢٤٣.

٣- بهروز رفيعی: تعليم وترتيب در إسلام، طهران، ١٣٧٨، ص ١١٤. شعبان عبد العزيز: الكتب والمكتبات، ص ٣٧٦.

٤- أحمد شليبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ١٥٦.

يتضح مما سبق أن المكتبات كانت أحد أهم مراكز نشر العلم والمعرفة، ومظهر من مظاهر الازدهار الثقافي في أي مجتمع تتوفر فيه، وأن ظهورها وانتشارها يدل دلالة واضحة على التطور الفكري والحضارى الذى أسسه المسلمون علي ركائز متينة ودعائم راسخة، كما تدل علي اهتمام المسلمين بجمع التراث الإنسانى المكتوب والحفاظ عليه، والعمل على تسهيل طرق الاستفادة منه وتقديمه للباحثين الذين يتوقون إلي العلم والمعرفة^١.

الخانقاوات أو الربط^٢

أطلق الرباط أول الأمر علي القاعدة العسكرية التي يربط فيه المجاهدون لمراقبة الثغور والدفاع عن الحدود^٣، ثم صار يطلق على المكان الذى يربط فيه الصوفية للعبادة والانتقطاع إلى الله ومجاهدة النفس^٤. ويعزى إلى "أبى سعيد الميهني"^٥ أنه أول من أسس

^١ - عبد الحى الكتان: تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، المطبعة الوطنية، مراكش، ٢٠٠٤م، ص ١١.

^٢ - (الخانقاوات . الربط . الزوايا): هي جميعاً بيوت الصوفية والزهاد والمجاهدين، وقد ساد مصطلح "خانقاه" في المشرق الإسلامى والشام ومصر، في حين ساد مصطلح زاوية ليعبر عن نفس المعنى فى المغرب، علي أنه يلاحظ في كثير من الحالات أن اسم زاوية أطلق في المشرق علي المصلي الصغير. (سعيد عبد الفتاح عاشور: المؤسسات العربية والإسلامية ودورها الحضارى "الفن العربى الإسلامى"، تونس، ١٩٩٤م، ص ٨٦)

^٣ -Derek Hill and Oleg Grabar: Islamic Architecture and its Decoration, London, ١٩٦٧, p٣٤.

^٤. المقرئى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٩٣.

^٥. هو "أبو سعيد بن أبى الخير الميهني" (ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) من أكبر الشخصيات الصوفية التى عاشت في النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى والنصف الأول من القرن الخامس الهجرى، وهو يعتبر الرائد الأول لشعراء الصوفية الإيرانيين، اتخذ "نيسابور" مركزاً لنشاطه حيث ألفت حوله العديد من المريدين، وذاع صيته في إيران. (المجوىرى: كشف المحجوب، ص ٦٦، ٦٧)

نظام الخانقاوات في الإسلام، حيث كان يعيش مع مريديه في عدد من الخانقاوات، والتي وضع لمعيشتهم بها العديد من القواعد والأسس^١.

ازداد انتشار الخانقاوات بشكل ملحوظ في أوائل القرن الخامس الهجري حتي عمت جميع أنحاء العالم الإسلامي، وُضع لها نظامٌ معينٌ للحياة فيها، وكان يقوم بإدارة كل واحدة منها شيخ من شيوخ الصوفية^٢. قسمت كل خانقاة إلى خلوات للعبادة وحجرات متعددة للسكن، وقاعة كبيرة تصلح لتجمع الصوفية وللطعام، وبها مطبخ وخادم لإعداد الطعام، وكان ينفق على الخانقاوات من الأوقاف الموقوفة عليها^٣.

صارت الخانقاوات بعد ذلك من المؤسسات التعليمية جنباً إلى جنب مع المساجد لتعليم التصوف، كما كانت تؤدي خدمات ثقافية ودينية كالوعظ والإقراء والإفتاء ومنح الإجازات العلمية وتصنيف الكتب^٤. وتضافر على إنشائها في تلك الفترة الحكام والأفراد، فهذا السلطان "محمود" (٤٢١: ٣٨٨هـ / ١٠٣٠: ٩٩٨م) قام ببناء عدد ضخم من الخانقاوات والربط، من ذلك بنائه سنة (٤١٠هـ / ١٠٢٠م) رباط عرف باسم "رباط شاهي" أو "ماهي"^٥. وهناك أيضاً رباط "مانك علي ميمون"، و"مانك" هذا من أعيان مدينة غزنة وأثريائها، وقد ترك بعد وفاته أموالاً وأوقافاً كثيرة منها هذا الرباط^٦. ومن أربطة غزنة الشهيرة أيضاً رباط "كرنان"^٧.

^١ - المصدر السابق، ص ٦٧.

^٢ - إسعاد قنديل: لمحات من الغزل الصوفي في الشعر الفارسي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧م، ص ٨.

^٣ - ذبيح الله صفا: تاريخ سياسي واجتماعي وفرهنگي إيران، ص ٢٥٠، ٢٥١.

^٤ - رحيم كاظم، عواطف العربي: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٥٩.

^٥ - أوقطاي آصلان: فنون الترك وعمائرهم، ص ٢٨.

^٦ - البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ١٣٤، ٢٢٧.

^٧ - المصدر السابق، ص ٣٧٨.

والذى ساعد الخانقاوات علي القيام بدورها الثقافى هو أن الواقفين أنشأوا فيها المكتبات وأوقفوا فيها الكتب، فكان الزهاد والصوفية يترددون علي مكتباتها، وكذلك تردد عليها الطلاب الذين يرحلون في طلب العلم^١.

ومما يدل علي دور الخانقاوات الثقافى، أن كتب الصوفية في تلك الفترة كانت من أهم الآثار الشريفة الفارسية والتي تشكل جزءاً هاماً منها، لما تمتاز به هذه المجموعة من الكتب برونق خاص وصفاء في التأليف وبعد عن التملق والزيف الذى يحتاج إليه كل من يخدم في قصور الحكام والسلاطين ويتقرب إليهم، ونظراً لاختلاط الصوفية بعامية الشعب والعلاقة القلبية والروحية التي تربط الشيخ بمريده فإن غالبية المؤلفات الصوفية دونت بأسلوب سلس بعيد عن أى تكلف وصناعة لفظية^٢.

المجالس العلمية^٣

كان من السمات العامة للحياة الثقافية في مدينة "غزة" كثرة المجالس العلمية والأدبية الخاصة منها والعامية، كانت هذه المجالس بمثابة تجمع للعلماء والأدباء كى يبرز كل منهم في مجال علمه وأدبه وشعره. ارتبطت هذه المجالس بشكل خاص بقصور السلاطين والأمراء، لأنهم كانوا يعدون أنفسهم حماة للعلم، ويرون أن قصورهم يجب أن تكون مركزاً تشع منه الثقافة والمعرفة، ومنتدى للعلماء والأدباء^٤، ولقد مر بنا تشجيع السلاطين

١- يحيى محمود ساعاتي: الوقف وبنية المكتبة العربية، الرياض، ١٩٨٨م، ص ٢١، ١٠٨.

٢- عبد السلام فهمى: موضوعات النثر الفارسى، ص ١٢٦.

٣- مصطلح المجلس كان يعنى في الأصل الوضع الذى يتخذه المدرس للتدريس بعد أن يؤدى الصلاة أولاً في المسجد، وقد استعمل بعد ذلك من باب التوسع للدلالة على كل الجلسات التى يحدث فيها نشاط تدريسي أو أى مناقشات علمية أخرى. (جورج المقدسى: نشأة الكليات، ص ١٦، ٦٥)

٤- أحمد جاب الله شلبي: التعليم والتربية عند المسلمين، ص ٧١. يوسف محمود: الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلامية، ص ٧٨.

و وزراءهم لمثل تلك المجالس العلمية حيث كان يحظى رجال العلم والشعراء فيها بالهبات والصلات الجزيلة.

كان لهذه المجالس آداب خاصة وتقاليد معينة يجب مراعاتها من قِبَل من يسمح له بحضورها، إذ لم يكن الحضور مسموحاً إلا لطبقة معينة من الناس، ولم يكن الحاضرون أحراراً في اختيار الموعد الذي يحضرون فيه أو ينصرفون عنده، وإنما كانوا يحضرون في موعد محدد وينصرفون عند إشارة خاصة يشير بها السلطان أو الأمير، ولا يذكر الحاضر شيئاً إلا إذا سئل، وأن يكون حسن الاستماع حسن الكلام^١. كما كان السلاطين يشاركون في موضوعات النقاش التي تدور في تلك المجالس، ويبدون رأيهم في العديد من القضايا المطروحة، وخاصة ممن كانوا على مستوى عالٍ من الثقافة، ومن هؤلاء السلطان "محمود" (٤٢١: ٣٨٨ هـ / ١٠٣٠: ٩٩٨ م) الذي كان شديد الحماس في أن ينال العظمة التي يستحقها ملك جعل من بلاطه ملتقى تدور فيه فنون المناقشات في الآداب والعلوم، والتي وصل إليها عباقرة العلماء في ذلك العهد^٢.

كما دأب السلطان "مسعود" (٤٢١: ٤٣٢ هـ / ١٠٣٠: ١٠٤٠ م) على عقد المجالس العلمية حتي قبل توليه الحكم، ولم يؤم هذه المجالس العلماء والشعراء من الرجال فقط، وإنما أمتها العالمات من النساء، فكانت زوجة "بايتكين" حاكم ناحية داور. وهو من مشاهير علماء عصر السلطان "محمود" تحضر مجلس الأمير "مسعود" بغزنة وتقص الحكايات والأخبار عن سيرة الأمير وأحواله في تلك الأيام^٣.

كذلك عقدت المجالس العلمية في بيوت العلماء، وكانت تلك المجالس بالغة التأثير في التعليم والوعي الثقافي والحركة الفكرية في تلك الفترة، فنجد العلماء يخصصون مكاناً في

١- الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ١٧٤. عبد الله العمرى: تاريخ العلم عند العرب، ص ٢٢، ٢٣.

٢- الهجویری: كشف المحجوب، ص ٢٥. أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٧٣.

٣- البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ١١٦، ١١٧.

بيوتهم يجتمع فيه أهل العلم لمناقشة المسائل العلمية والقضايا المذهبية، ويبدى كل منهم رأيه فيها ويقترح الحل الذى يراه مناسباً لكل مسألة أو قضية^١. ولما كان المنزل مكاناً خاصاً يحس رواده بالوحشة، فكان على صاحب البيت أن يقابل رواده بالبشاشة والترحاب ويسرى عنهم، ويتحتم على الحضور أن يتسموا بالوقار والهدوء والحفاظ على حرمة البيت وجلاله^٢.

تنوعت المجالس العلمية تنوعاً يناسب الحياة الثقافية المتنوعة الأطراف آنذاك، فكان منها المجالس الخاصة التي عقدت في بلاط السلاطين، وقد سبق الحديث عنها، أما المجالس العامة فمناها:

مجالس الوعظ التي كثرت في تلك الفترة، والتي كان لها دورها في إثراء الحياة العلمية، فالواعظ كان يقوم بشرح وتفسير آيات القرآن الكريم، ويتفقه في شئون الدين وكافة المسائل الدينية، ويقوم بوعظ الناس في شئونهم العامة، ومن هؤلاء "أبو المؤيد عيسى بن عبد الله بن القاسم الواعظ الغزنوى" الكاتب والشاعر والواعظ، الذى توجه إلى بغداد سنة (٤٩٥ هـ / ١١٠١ م) ووعظ في جامعها وحصل له قبول عظيم من الناس، توفي سنة (٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م)^٣.

"علي بن الحسن الواعظ الغزنوى" كان واعظاً حسن التقرير وصاحب التصرف والتأثير، كان يحضر مجلس وعظه جمع كثير من الأمراء والوزراء والكبراء، توجه إلى بغداد سنة (٥١٦ هـ / ١١٢٢ م) فوعظ وأقبل الناس عليه^٤، توفي سنة (٥٥١ هـ / ١١٥٦ م)^٥.

١- رحييم كاظم، عواطف العربى: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٥٧.

٢- أحمد جاب الله شلبى: المرجع نفسه، ص ٦٨.

٣- الذهبى: تاريخ الإسلام، ج ٣٤، ص ٢٨٣. ابن الجوزى: المنتظم، ج ٩، ص ١٣١.

٤- الأصبهاني: رياض العلماء وحياض الفضلاء، ج ٤، تحقيق أحمد السيد الحسينى، إيران، مكتبة آية الله العظمى، ١٤٠٣ هـ ق، ص ٦٥.

٥- ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٤١١. الذهبى: تاريخ الإسلام، ج ٣٥، ص ٢٩٦.

ومنهم "أبو المكارم أحشاذ بن عبد السلام بن محمد الغزنوي" الواعظ والفقيه، أقام مدة في أصفهان، وكان يعقد مجلس وعظة في الجامع كل يوم أربعاء، فملك قلوب الناس، توفي سنة (٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م).^٢ ومنهم أيضًا "السيد أشرف الدين حسن بن ناصر العلوى الغزنوى" كان من الوعاظ المشهورين في عصره، يحضر مجلسه آلاف من الناس لسماع وعظه، كما كان رقيق الطبع في قرض الشعر، توفي سنة (٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م).^٣

لم تقتصر مجالس الوعظ على الرجال فقط، ولما كان من الضروري منع الرجال من الاختلاط بالنساء في هذه المجالس حتي لا يؤدي وجودهم إلى الفتنة والانشغال بهن عما يقال من مسائل دينية، لذا انفردت النساء بمجالس للوعظ خاصة بهن. وقد اتخذت طابعًا معينًا بأن تكون الواعظة سيدة متفكحة زاهدة صالحة متدينة حتي تصير قدوة صالحة لجميع النساء في الورع والتقوى، لذا فقد خصصت نساء القصور مجالس خاصة للإرشاد والوعظ في قصورهن، هذا بالإضافة إلى مجالس الواعظات اللاتي كن يعقدنهن في أماكن خاصة بهن، فلم يكن يمر يومًا دون عقد هذه المجالس.^٤

من هنا نرى الإسهامات التي قدمتها المجالس العلمية، والتي كانت تعقد في الجوامع وقصور الحكام والوزراء ومنازل العلماء وحوانيت الوراقين في إحياء نهضة علمية شاملة في ذلك العصر، وهى وإن لم تكن وسائل منظمة للتعليم إلا أنها أسهمت إسهامًا كبيرًا في التطور الثقافي.

لم يقتصر التعليم في "غزة" على تلك المؤسسات، إنما امتد إلى السجون والتي لم تقتصر على تعليم العلوم الدينية فقط، وإنما امتد التعليم فيها إلى العلوم العقلية، فقد تعلم الشاعر

^١ - ابن الأثير: المصدر نفسه والجزء والصفحة. ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٢٣، ٣٢٤.

^٢ - عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر، ج ٢، ص ١٣٣. القرشى: الجواهر المضيئة، ج ١، ص ٣٥٩.

^٣ - رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص ١١٦.

^٤ - نعمة على مرسى: المرأة المسلمة في آسيا الوسطى، ص ١٤٠.

"مسعود سعد سلمان" علم الفلك والنجوم في سجون الغزنويين، فلم تحول محنته التي كان فيها بينه وبين الرغبة في الاستزادة من العلم والمعرفة^١.

طرق التدريس في المؤسسات التعليمية

كان المعلمون المسلمون يفرقون بين الأساليب المستخدمة في تعليم الصغار من ناحية، وبين تلك المستخدمة في تعليم الكبار، فعلى مستوى الكتاب اعتمد التعليم اعتمادًا يكاد يكون كاملاً على الذاكرة على أساس أنها عادة ما تكون في أوج نشاطها في هذا العمر الغض، وينبغي أن تستغل استغلالاً تاماً وهي في ذروتها، ولذا كان في استطاعة الكثير من الصغار تلاوة أجزاء عديدة من القرآن الكريم إن لم يكن كله عن ظهر قلب قبل أن يتركوا الكتاب^٢.

أما فيما يتعلق بالمواد الأخرى غير القرآن الكريم، فكان من المتفق عليه بوجه عام أن ينتقل المعلم من البسيط إلى المعقد، ومن السهل إلى الصعب^٣، ويضع نصب عينيه قدرة الطفل على استيعاب ما يلحق.

أدرك المسلمون أن العلم وحده لا يكفي ليكون سلاح المعلم، ويجب أن يضاف إلى العلم فن التربية ليتمكن المدرس من دراسة نفسية الطفل والنزول إلى مستواه والاتصال العاطفي به، ليكون ذلك جسراً يوصل خلاله العلم إلى عقل التلميذ، لذلك أظهر

^١ - طلعت محمد إسماعيل: مسعود سعد سلمان، ص ٢١٠.

^٢ - هشام نشاى: المدنية الإسلامية، ص ٨٤، ٨٥.

^٣ - السبكي: معيد النعم، ص ١٠٥.

^٤ - ابن خلدون: المقدمة، ج ٣، ص ٩٢٥. أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص ١٩٠. (التربية في الإسلام عبارة عن تنشئة أفراد الجيل وإعدادهم وتنمية قدراتهم واستعداداتهم وتشكيلهم حضارياً وفقاً لمفهوم الحضارة الإسلامية علي نحو يستطيعون معه بناء تلك الحضارة، فالتربية هي إحدى الوسائل الهامة لاستمرار الثقافة في المجتمع بما تستخدمه من أساليب وطرق يمارسها الأفراد ويعايشونها ويضيفون إليها

المعلمون المسلمون اهتمامهم الخاص بأساليب التأديب التي يسمح للمعلم باستخدامها مع تلاميذه، وبوجه عام كان العقاب البدني مقبولا كأسلوب تقويم وتربية له فائدته، إلا أنه كان يتعين تجنب استخدام العنف مع الصغار.

هذا بالنسبة لطرق التدريس في الكُتَّاب، أما بالنسبة لمرحلة التعليم العالي فكان أهم مظهر مميز للتعليم الإسلامي في المسجد هو "الحلقة" والتي يمكن وصفها بأنها صفوف دراسية دائمة، وهي أقدم ما عرفه الناس من تلقى العلم، وقد نبعت الحلقات من المساجد واستمرت حتى بعد إنشاء المدارس، والحلقة لها نظام حيث يجلس الشيخ علي حشية صغيرة ويكون ظهره إلي الحائط أو إلى أحد الأعمدة، ويكون الحضور حلقة أمامه ويكون الشيخ في أبرز نقطة في محيطها^١، والجلوس في الحلقة بحسب المستوى العلمي، فالمعيدون والممتازون من الزوار يجلسون عن يمين الشيخ ويساره، ويجلس الرفقاء في درس واحد في جهة واحدة من الحلقة، ليكون نظر الشيخ إليهم جميعاً، ويترك في الحلقة فراغ ليجلس فيه أولئك الذين يحبون أن ينضموا حديثاً للحلقة، للاستماع والاستفادة^٢.

أما بالنسبة للطلاب فكلما ازدادت معرفة الطالب بموضوع الدرس كلما قرب موضعه من الشيخ، فترتيب الجلوس كان يتغير تبعاً لتقدم الطالب أو تخلفه، فكان على الجالسين

ويطورونها أو يجددون فيها ويبتكرون، باعتبارها عملية تنشئة اجتماعية من ناحية، ومن ناحية أخرى وسيلة لتقدم المجتمعات، هذا هو موقف التربية بالنسبة للثقافة، كما أن التربية وسيلة يمكن استخدامها لإحداث التغيير في المجتمع، وذلك بما تتخذه من قوي التغيير وفي مقدمتها المدرسة من خلال مناهجها وبرامجها الدراسية وأنشطتها التربوية، وكذلك معلمها والقائمين عليها، فهي التي تستطيع تعميق المفاهيم الجديدة وترسيخها أو تستبدل قيماً بقيم أخرى أو تضيف إليها ألواناً من المعلومات إلى عقول الناشئين ومداركهم، وهؤلاء بدورهم يسهمون في إحداث التغيير الثقافي في مجتمعاتهم وعن طريقهم يمكن إعادة بناء المجتمعات من جديد). أحمد عرفات القاضي: الفكر التربوي عند المسلمين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، (د.ت)، ص ١٨، ٢٧.

١ - أحمد شلبي: المرجع نفسه، ص ٢٧٨، ٣٦٨.

٢ - ابن خلدون: المصدر نفسه والجزء، ص ١١١٩.

بالقرب من الشيخ أن يخلوا أماكنهم للطلاب الأكثر تفوقاً، ومما يبرز أهمية جلوس الطالب بالقرب من المدرس تلك العبارة التي كثيراً ما نصادفها في التراجم والسير "قربه إليه"^١.

كان الشيخ أو المعلم يفتح الدرس بالبسملة وبالصلاة والتسليم على الرسول صلى الله عليه وسلم وربما تلى بعض آيات الذكر الحكيم، أو بعض الأحاديث التي تحث الطلاب على طلب العلم، وعلى التواضع في طلبه وعلى حسن السيرة والأخلاق، مبيناً لهم إن ذلك يعين على حل المشكلات وإدراك المعميات، ثم يبدأ الدرس بعد هذا التقديم^٢.

كان للطلاب الحرية في اختيار الحلقة التي يريد الجلوس فيها والتخصصات التي يميل إليها، فهو الذي يختار الشيوخ الذين يريد الدراسة على أيديهم، وذلك حسب الهدف الذي يحدده كل طالب لحياته العلمية، أما مواعيد الدراسة والحلقات فكانت تحدد من قبل الشيوخ والمعلمين في الفترة الممتدة من بعد صلاة الفجر وحتى منتصف الليل.

أما طرق التدريس في تلك الحلقات فأهمها **السماع والإملاء**، والسماع هو أن يسمع الطالب أو السامع المرويات التي يليقها الشيخ من حافظته أو يقرؤها من كتابه، وهي أرفع أنواع الرواية عند الأكثرين، ويقدم لها بعبارة مثل "سمعت عن" أو "حدثني" أو "أملي علي فلان"^٣. وقد اتبع مؤلفو المسلمين من غير المحدثين هذه الطريقة في تحصيل العلوم من كتب السابقين وروايتها ومن ثم الاستشهاد بها في مؤلفاتهم^٤.

قصد "غزة" العديد من الطلبة والعلماء من البلدان الإسلامية لسماع الحديث من علمائها، وكان هؤلاء يمكثون زمناً طويلاً في "غزة" للدراسة فلا يغادرونها حتى يحصلوا على الإجازة العلمية لرواية الحديث والأدب والتاريخ، ومن هؤلاء الشيخ "أبو مسلم عمر

١- جورج المقدسى: نشأة الكليات، ص ١٠٥.

٢- أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٣٦٩.

٣- أيمن فؤاد سيد: الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات، ج ٢، ص ٤٧٧. محمد عجاج الخطيب: أصول الحديث علومه ومصطلحه، لبنان، دار الفكر الحديث، ١٩٦٧م، ص ٤٤٢.

٤- ناصر محمد عبد الرحمن: الاتصال العلمي في التراث الإسلامى، ص ١٩٢.

بن علي بن أحمد بن الليث البخاري "سمع" بغزنة" الشيخ "مظفر بن الحسين" والشيخ "علي بن محمد الدينوري اللبان" و"سعيد العيار"، وكان يعتمد علي الحفظ في سماعه^١. ومنهم "عيسى بن شعيب بن إبراهيم" سمع من "الخليل بن أبي يعلي" وغيره، وكان حريصاً علي السماع توفي سنة (٥١٢ هـ / ١١١٨ م)^٢، ومنهم "أبو منصور المظفر بن الحسين الغزنوي" سمع الشيخ "حنبل بن أحمد بن حنبل"^٣.

كان من المسلم به أن تدوين المادة العلمية له أهمية قصوى في عملية التعليم، فلا يجب الاعتماد علي الذاكرة وحدها، هذا على الرغم من التشديد على أهمية إيداع المعلومات في الذاكرة، فلا يمكن الاستغناء عن الدفاتر لأن المرء يجب أن ينعش ذاكرته لكي يظل ما حفظه سليماً لا ينقص منه شيء، ففي البداية كان الشيوخ يلقون دروسهم من الذاكرة دون الرجوع إلى نص مكتوب، بيد أنهم سرعان ما بدأوا في استخدام المذكرات، وبالمثل اعتمد الطلبة أولاً على الذاكرة، ولكنهم ما لبثوا أن أخذوا في كتابة المذكرات، ومن ثم صار الإملاء من طرق التدريس المتبعة والمعتادة في مدينة "غزنة".

هذا وقد اعتبرت طريقة السماع والإملاء من أصح الطرق في أخذ العلم، لأن في حالة القراءة ربما يغفل القارئ أو لا يسمع السامع ما يقرأ عليه، أما إذا أملى القارئ وكتب السامع فإن ذلك لا يتطرق إليه الخطأ، لأن القارئ يعرف ما يملئ والسامع يفهم ما يملئ عليه ويكتبه، ولذلك نجد بعض المؤلفين يعقدون مجالس لإملاء كتبهم المصنفة، بل أن أكثر هؤلاء المؤلفين كانت تؤخذ عنهم كتبهم إملاءً^٤. كان لبعض العلماء يوم معلوم من

١- الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ٤٠٧، ٤٠٨.

٢- المصدر السابق، ج ١٩، ص ٣٨٩، ٣٩٠.

٣- الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٤، ص ٣٤٣.

٤- ناصر محمد عبد الرحمن: الاتصال العلمي في التراث الإسلامي، ص ٢٠٢.

كل أسبوع يملون فيه كتبهم^١، وعامةً كان من آداب المملي أن يعين لأصحابه يوم المجلس لئلا ينقطعون عن أشغالهم ويستعدوا للحضور.

ومن المظاهر الملفتة للنظر أن بعض العلماء كانوا يملون كتبهم من حفظهم^٢، وذلك ليس بالأمر العجيب إذا علمنا أن هذه الكتب لم تكن تملي في يوم واحد، هذا بالإضافة إلى ما عرف عن المسلمين من قوة الحفظ، واهتمام علماءهم الزائد بأهمية الحفظ، لذلك نجد إجماع المربون علي أن الذاكرة هي أهم خصائص الطالب الحافظ، نظرًا لأن أسمى مطمع للدراسين المسلمين الأوائل كان حفظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف عن ظهر قلب.

لذلك نجد أن تقوية الذاكرة كانت أحد المعالم الثابتة للتعليم الإسلامي، وما أكثر الأخبار التي تروى عنمن كانوا يملكون قدرة خارقة علي التذكر، والذين كانوا يوصفون في كتب التراجم بأنهم "بحور في العلوم" و"أوعية المعرفة"^٣ أو كثيرى المحفوظ^٤.

وقد صورت لنا كتب التراث نماذج لقدرات هؤلاء العلماء على الحفظ لا نجد لها مثيل في العصر الحاضر، ومن الأمثلة علي ذلك من أدياء "غزنة" الواردين عليها الأديب والشاعر الكبير "بديع الزمان الهمداني" الذي كان في مقدوره أن يعيد قصيدة يزيد عدد أبياتها علي الخمسين بيتاً من أولها إلي آخرها بعد أن يسمعها مرة واحدة، كما كان في وسعه أن يقرأ أربع أو خمس صفحات من كتاب لم يسبق له أن أطلع عليه ثم يرددتها حرفياً من الذاكرة^٥. ومن الفقهاء من كان يحفظ أسس أحد المذاهب الفقهية، ومن هؤلاء الفقيه

١- ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٢٥.

٢- الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ١٧٣.

٣- جورج المقدسى: نشأة الكليات، ص ١١٥.

٤- القرشى: الجواهر المضيئة، ج ١، ص ١٦٠. أظهر المباركورى: رجال السند والهند حتى القرن السابع

الهجرى، القاهرة، دار الأنصار، ١٣٩٨هـ، ص ٣٥٠.

٥- العتبى: تاريخ اليميني، ج ١، ص ١٥٧. ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٦٣، ١٦٤.

الشافعي "أبو المحاسن الروياني" (ت ٥٠٢هـ / ١١٠٨م)^١. والذي قال "إذا أتت النيران علي مؤلفات الشافعي لأمليتها من حفظي".^٢ وفي المقابل كان مما يلفت النظر أن يوجد فقيه لا يتمتع بذاكرة قوية، ومنهم "علي بن الحسين بن عبد الله الغزنوي" (ت ٥٥١هـ / ١١٥٦م) والذي كان محفوظه قليل، فكان كثيرًا ما يردد ما يحفظه.^٣

وإذا كان المدرس أو العالم يلقي من محفوظاته أو من مذكرات كتبها ليقراً منها فإن الدرس يسمى إملاءً، وفي هذه الحالة يكون إلقاء الدرس بطيئاً فقرة فقرة أو حديثاً حديثاً، ويكتب الطلاب خلفه، فإذا ما انتهى من إلقاء الحديث أو الفقرة عرج بالشرح والايضاح والتفسير، ويدون الطلاب هذه الشروح علي هامش الأوراق التي كتبت عليها الأصول، فإذا ما اكتملت أمالي الشيخ في ذلك الموضوع فإنه يقرأ الأمالي أو تقرأ عليه لتصحيحها مع مراعاة الدقة في النقل وفي التصحيح^٤. ومن تلك الأمالي تكون لنا تراث من الكتب أو المخطوطات التي أتخذت عناوين لها حسب موضوعاتها، واحتفظ بعضها بلفظ الأمالي عنواناً له، وهذا ما سيتضح عند الحديث عن علماء "غزنة" وأهم مصنفاتهم.

وتعد القراءة أو العرض من طرق التدريس الهامة، والقراءة علي الشيخ يسميها أكثر المحديثين عرضاً، وتعد تلك الطريقة من أكثر طرق تحصيل العلم من كتب السابقين شيوعاً بين العلماء في تلك الفترة، وكان كتاب التراجم وغيرهم ممن يؤرخون للحياة العلمية لهؤلاء العلماء يحرصون علي ذكر الكتب التي قرأها أحدهم علي مؤلفيها أو تلامذتهم،

١- عبد الواحد إسماعيل بن أحمد أبو المحاسن فخر الإسلام الروياني: فقيه شافعي من أهل "روياني" (بنواحي طبرستان) رحل إلى غزنة وبخارى و نيسابور. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٥، ص ٦٣.

٢- ابن خلكان: المصدر نفسه والجزء، ص ١٩٩.

٣- الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ٦٠.

٤- أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٣٦٩.

بالإضافة إلى ذكر أسماء العلماء الذين قرئ عليهم الكتاب، ومن هؤلاء الحافظ "أبو الحسن عبد الغافر الفارسي" الذي قرئ عليه "لطائف الإشارات" بمدينة "غزة"^١.

والرواية بها جائزة عند العلماء، سواء قرأ الشيخ من حفظه أم من كتابه أم قرأ غيره وهو يسمع بشرط أن يكون الشيخ حافظاً لما يقرأ أو يقابل القراءة على أصله الصحيح أو يكون الأصل بيد القارئ أو أحد المستمعين الثقات، ويجوز لمن قرأ الكتاب علي مؤلفه أو من حضر هذه القراءة أن يحدث بها قائلاً: "قرأت" أو "قرئ علي فلان وأنا أسمع" أو "أخبرنا" أو "حدثنا قراءة عليه"^٢. فيذكر لنا "نجم الدين النسفى" في كتابه "القند في ذكر علماء سمرقند"، قال أخبرنا الشيخ العالم العدل "أبو القاسم الصرفي"، قال: أخبرنا "سعيد بن أبي سعيد العيار" قراءة عليه "بغزة" في شهور سنة ست وخمسين وأربعمائة قال أخبرنا "أبو طاهر محمد بن الفضل" ثم ذكر بعض الأحاديث النبوية^٣.

لم تكن قراءة الكتب على مؤلفيها أو تلامذتهم مقصورة على كتب الحديث فقط، بل تعدتها إلي قراءة كتب العلوم الأخرى كالأدب واللغة والطب، وبمضي الوقت صارت كتب كبار المعلمين الأوائل مراجع مدرسية لمن خلفهم من معلمين ودارسين، وغالبًا ما اقتصر دور المعلم على قراءة شروح النصوص القديمة "المتون" للمعلمين العظام^٤.

ويظهر لنا أن الطريقة الأولى وهي سماع الكتب من مؤلفيها والطريقة الثانية وهي قراءتها عليهم، طريقتان متشابهتان لجواز رواية هذه الكتب أو الإستشهاد بمعلوماتها، فإذا قرأ المؤلف كتابه علي تلامذته سمعوه منه، وإذا قرأ أحدهم سمع الشيخ والحاضرون^٥.

^١ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٢٥.

^٢ ناصر محمد عبد الرحمن: الاتصال العلمي في التراث الإسلامي، ص ١٩٢.

^٣ - نجم الدين النسفى: القند في ذكر علماء سمرقند، تحقيق يوسف الهادى، طهران، مؤسسة الطباعة، ١٩٩٩م، ص ٥٦٣.

^٤ - هشام نشاى: المدينة الإسلامية، ص ٨٦.

^٥ - ناصر محمد عبد الرحمن: المرجع نفسه، ص ١٩٣.

كانت "المناقشة والسؤال" إحدى الطرق التربوية المستخدمة في ذلك الوقت، فقد كان لكل طالب الحق في أن يسأل أي سؤال لاستيضاح ما صعب عليه فهمه، فقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "العلم خزانة مفتاحها السؤال" ^١ لذلك كان مجال المناقشة مفتوحاً أمام الطلاب، فالواحد منهم لا يكتفى بمجرد السماع بل يهتم بالبحث والسؤال والمناقشة ليتمكن من فهم جميع المسائل العلمية.

كانت للمناقشة بين الأستاذ وطلابه آداب خاصة تحفظ للأستاذ وقاره وهيبته ومكانته، كما تحقق للطلاب طريق الفهم والتعلم ^٢، فعلى الطالب أن يسأل تفقهاً لا تعتاً ولا رياءً، ثم عليه أن يختار الوقت المناسب للإلقاء السؤال، فلا يقاطع مدرسه وهو يتكلم ولا زميله وهو يسأل ^٣، كما يجب على الأستاذ أن يشجع طلابه على أن يسألوا وعليه أيضاً أن يحترم آرائهم، وكان المدرس أحياناً يقوم مقام السائل فيلقي على الطلاب بضعة أسئلة ليختبر فهمهم، ويحيب بنفسه على ما تعسر عليهم أن يجيبوا عنه، وهو بهذا يعطي فرصة للطلاب قليلي الفهم أن يتفجعوا بما تستدعيه هذه الأسئلة وأجوبتها من إعادة للموضوع وزيادة بسط لمسائله ^٤، وعلى الرغم من أن الطلبة كانوا يحترمون آراء معلمهم إلا أنهم كثيراً ما كانوا يشتركون في مناقشات حامية معهم، وكثيراً ما أعربوا عن آراء تخالف آراء معلمهم، وعادةً ما كان يعطي للطلاب الذي يثبت براعته في الحوار مكاناً متميزاً في الحلقة ^٥. هكذا فن الحوار والنقاش في الحياة العلمية ونظمته قواعد واضحة ومحددة.

كان للمناقشة والسؤال الأهمية الكبرى في حياة كلا من الطلاب والمدرسين، لأن الأمثلة التي تطرح على المدرسين كان لها دور كبير في تثبيت أقدام المدرسين في تلك المكانة، وخاصة حديثي العهد بهذه المنزلة، فإذا استطاع المدرس أن يثبت أمام النقاش

^١ - أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٣٧١.

^٢ - حسين أمين: تاريخ العراق الاقتصادي، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٦٥م، ص ٢٣٠، ٢٣١.

^٣ - أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٣٧٢.

^٤ - حسين أمين: تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٢٣١، ٣٧٢.

^٥ - هشام نشايي: المدنية الإسلامية، ص ٨٦.

ووفق في الرد على الأسئلة التي كانت تصل أحياناً إلى درجة التحدي وإقناع من حوله، فإنه حينئذٍ يستطيع مواصلة عمله في التدريس، أما إذا عجز عن إقناع الطلاب والإجابة عن أسئلتهم فعليه حينئذٍ أن يعود إلي حيث كان طالباً يتلقى العلم في مجالس الشيوخ^١.

ومن طرق التدريس أيضاً المذاكرة، وهى عبارة عن مجالس لا مكاناً معيناً لها ولا زماناً محدداً لعقدتها، وهدفها تبادل المعلومات والآراء بين طلبة الحديث خاصة، لكنها تطورت عندما صار العلماء يتباحثون في الحديث سوياً في مجالس مفتوحة يحضرها الطلبة، ثم تحولت هذه المجالس إلى مؤسسات تعليمية ذات قواعد محددة، وتأخذ هذه المجالس أشكالاً عدة تعتمد علي موضوع الحديث المراد بحثه، ولا سيما تناول متون الأحاديث وأسانيدها ورجالها جرحاً وتعديلاً، وربما تناولت المذاكرة تطبيقات أحاديث معينة في أبواب الفقه، كما قد تناول دراسة أحاديث رواها صحابي معين، وتتبعها في مختلف كتب الحديث وتقدير درجتها من حيث الصحة أو الضعف، كانت تلك المجالس مفتوحة للناس عامة وللطلبة خاصة، ولهؤلاء أن يكتبوا ما يدور فيها، وأن يوجهوا الأسئلة كما يشاءون أو يقترحوا الموضوعات التي يرغبون في معالجتها^٢.

أما عدد الحضور في مجالس المذاكرة فلم يكن محدداً، وكان مكانها وزمانها يحددان عند مقدم شيخ مهم لزيارة "غزة"، فيبادر العلماء والطلبة إلى زيارته، وعندها تتحول تلك الزيارة إلى مجلس مذاكرة، وهذا ما كان يحدث مع كبار العلماء، ومنهم شيخ الإسلام "إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني"، كان إماماً مفسراً محدثاً وفقهياً^٣ عقد مجلس الحديث وسمعه عدد لا يحصى من أهل "غزة" والهند، توفي شيخ الإسلام سنة (١٠٥٧هـ/١٦٤٩م).^٤ أما بالنسبة للزوار المغمورين فكان عليهم أن يقصدوا كبار العلماء

١- أحمد شلبي: المرجع نفسه، ص ٢٤٦.

٢- منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٥٨.

٣- ابن الأثير: اللباب، ج ٢، ص ٤٤.

٤- السمعاني: الأنساب، ج ٣، ص ٥٠٦.

٥- السمعاني: المصدر نفسه والجزء، ص ٥٠٦. أظهر المباركوري: رجال السند والهند، ص ٣٥٩.

ليتاح لهم المشاركة في مثل تلك المذاكرة، ولكي يتمكنوا من أخذ الحديث عن رواته العالين^١.

هكذا أصبح بوسع الطلبة أن يشهدوا كفاءات الأساتذة ويتنفعوا بعلمهم وخبرتهم، بل صاروا يتخذونهم نموذجاً لمذاكراتهم، كما أن المذاكرة لم تقتصر على الحديث فقط بل شملت العديد من المواضيع وصارت ميداناً يصول فيه أهل العلم والأدب، يحاول كل منهم إظهار علمه ومقدرته.

ومن طرق التدريس الأخرى طريقة النظر أو المناظرة، حيث كان نظام التعليم في مدارس الفقه يركز اهتمامه على تدريب وإعداد فقيه يستطيع أن يدافع عن رأيه، فيبدأ الطالب تخصصه في حقل الدراسات الفقهية مع إعدادة للتمكن في العلوم الأدبية، وبعد اجتياز سنوات دراسته في المرحلة الأولى المرهقة، ينتقل إلى الدراسات المتقدمة حتى يصل إلى الامتحان النهائي المتمثل في قدرته على الدفاع عن آرائه وذلك في مجلس المناظرة الذي يعقد لامتحانه، لذلك عليه من البداية حتى النهاية أن يمتلك ذاكرة قوية، ويواصل تزويدها بالمواد العلمية المرتبة والمصنفة بعناية بحيث تجعل في مقدوره استرجاعها عند الضرورة، فيعتمد على ما استودعه في ذاكرته متى أراد، لأن الدفاع عن الرأي إنما هو عمل شفهي تماماً، إذ لا مجال للرجوع إلى المصادر، كما لا يتاح الوقت لأعمال الفكر والتأمل مثلاً يتاح للمرء عند الكتابة، حيث لا تكون هناك فرصة لتدوين مسودة ثم إعادة كتابتها قبل الصياغة الأخيرة، كما يفترض فهم المادة فهماً دقيقاً واضحاً حتى يتمكن من استرجاعها على الفور استعداداً للمواجهة الكبرى مع الخصم في الوقت الذي لا مجال فيه للخطأ ولا هوادة ولا رحمة، ففي هذا المقام تحرز الشهرة أو تضيع ويصبح مستقبل المرء بين كفتي الميزان رهناً بتفوقه أو هزيمته^٢.

^١ - منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٥٩.

^٢ - جورج المقدسي: نشأة الكليات، ص ١٢٩.

ومن مجالس النظر التي عقدت في مدينة "غزة" مجلس النظر الذي عقده "أبو المحاسن سعد بن محمد الجولكي" (ت ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م) الذي وُجّه رسولاً إلى "غزة" سنة (٤١١هـ / ١٠٢٠م) وعقد له بها مجلس النظر^١. وأيضاً مجلس "أبو بكر محمد بن علي بن حامد الشاشي" (ت ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) الذي رحل إلى "غزة"، وعقد له بها مجالس النظر، وكان من أنظر أهل زمانه^٢.

وأخيراً فإن الجانب التعليمي في هذه المجالس ذو فائدة عظيمة لا يمكن إنكارها، فهي الاختبار النهائي الذي يتعين على الطالب أن يجتازه لكي يحصل علي إجازته ويصبح بعدها مؤهلاً لوظيفة التدريس في البلد الذي أثبت فيه جدارته في المناظرة، فالمناظرات التي فاز فيها هي الدليل علي قدرته علي الدفاع عن رأيه وبالتالي تصدر لتدريس الفقه والإفتاء.

المناهج الدراسية للمؤسسات التعليمية في مدينة "غزة"

لم يكن أمام الأطفال في سن الخامسة والعاشرة من خيار سوى الانتظام في الكتاب، وقد اقتصر مقرر الدراسة علي قراءة القرآن الكريم وحفظه، وكانوا يتدرجون في الكتابة بأن ينقلوا بعض آيات من القرآن الكريم، كما كانوا يتعلمون قليل من الحساب، وقد حظى فن تحسين الخطوط بعناية خاصة عندهم، وفي بعض الأحيان كان يدرس الشعر والحكم، وعندما يتم الصبي حفظ القرآن كان يعتبر أنه قد أنجز المرحلة الأولية، فينظم له حفل خاص للاحتفال بهذه المناسبة^٣.

أما بالنسبة للمساجد والمدارس فقد شمل المنهج الدراسي لتلك المعاهد فئتين من المواد:

١ - العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية

- ١ - السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ٣٨٧. السمعاني: الأنساب، ج ٢، ص ١٢٤. السهمي: تاريخ جرجان، الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٠م، ص ١٨٩.
- ٢ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ٥٢٦. السبكي: المصدر نفسه والجزء، ص ١٩٠.
- ٣ - هشام نشايي: المدينة الإسلامية، ص ٨٣.

٢- العلوم العقلية

كان لكل معلم الحرية في تحديد محتوى كل مادة من المواد التي تشتمل عليها هاتين الفئتين، وحينما انقسم العالم الإسلامي إلى أقسام مختلفة يدين كل منها بمذهب من مذاهب الفقه، عكست المناهج الدراسية للمعاهد التعليمية اتجاهات المذهب السائد، ومن ثم أعطت المناهج التعليمية في "غزة" الأولوية للمذهب الحنفي مذهب الدولة العزونية^١. ومن هنا خضع المنهج الدراسي في مؤسسات "غزة" للمقتضيات الدينية الأساسية فضلاً عن الاعتبارات المحلية.

وبالرغم من ذلك فلم يكن هناك منهج محدد يجب أن يلتزم به الجميع إذ كان لكل مؤسسة تعليمية مواد دراسية خاصة بها حسب رغبة مؤسسها، والذي كان يتبع في الأعم الأغلب رغبة المدرس الذي أنشئت المؤسسة من أجله، ومن المعروف عن علماء المسلمين تشجيعهم لتنوع العلوم التي يجب دراستها، فلا بد للعالم أن يلم بطرف من كل علم لأن لكل حقل من حقول المعرفة من يرغب في تعلمه. وعلى وجه العموم كانت الآداب تدرس قبل التخصص في أى حقل معين، وكان التخصص يتم عادة بعد دراسة القرآن والحديث والنحو والأدب. وعندما ظهرت مدارس تعليم الفقه أصبح التخصص يعنى التفوق في حقل الفقه يدعمه قدر كبير من الكفاءة في الحقول الإسلامية الأخرى، لذلك نجد أن التركيز في سنوات المرحلة الأولى من الدراسة ينصب على تعلم المبادئ الفقهية للمذهب الذي ينتمي إليه الطالب أى علي "فقه المذهب"، أما مرحلة الدراسة المتقدمة فكان التركيز فيها علي فقه الخلاف، وكانت هذه المرحلة الثانية هي فترة صحبة الطالب أو ملازمته التي يصبح خلالها صاحباً أى ملازماً لأستاذ الفقه وتابعاً له فيقال عنه "صاحب" شيخه^٢.

^١ - محمد الرفاعي: الدولة العزونية، ص ١٧٢، ١٧٣. ناجي معروف: مدارس قبل النظامية، ص ١٢٠.

^٢ - جورج المقدسي: نشأة الكليات، ص ٩٨، ١٣١.

أما تدريس الطب فكان مكانه البيمارستانات، وفي بعض الأحيان درس في قليل من المدارس، وبالنسبة للعلوم الأخرى كالفلسفة وغيره من العلوم العقلية فكانت تدرس خارج المساجد والمدارس، على اعتبار أن الأولوية للعلوم الدينية والأدبية^١.

ومن دراسة الحياة العلمية لمدينة "غزة" وجد بين الحين والآخر إشارة إلى المواد التي درسها علماء المدينة، فكان تسلسل تعلم المواد عند "أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري" والذي تلقى التعاليم الأولية للدين الإسلامي على أفراد أسرته، ثم بدأ دراسته في "غزة" في سن مبكرة، فاشتغل بما كان يشتغل به أترابه في ذلك الوقت من دراسة العلوم المتعارفة في ذلك الوقت كقراءة القرآن الكريم وتعلم اللغة والأدب، ثم كرس جهداً كبيراً لدراسة العلوم الدينية والشرعية كالتفسير والحديث والفقه.

ومن خلال كتابه "كشف المحجوب" يمكننا التعرف بوضوح على العلوم التي حصلها "الهجويري" أثناء دراسته والمعارف التي اكتسبها أثناء اطلاعاته وقراءاته، فقد ورد في كتابه العديد من الآيات القرآنية حوالى مائتين وست وثلاثين آية قرآنية، وإن دل ذلك فإنها يدل على تعمقه في فهمه وتفسيره، وإلى جانب الآيات استخدم الأحاديث، وقام بشرح الكثير منها شرحاً وافياً، ونقل معظمها إلى اللغة الفارسية، وفي هذا ما يدل على إلمامه الكبير بعلم الحديث، وقد صرح بنفسه أنه تتلمذ على بعض الشيوخ ممن كانوا أساتذته في علوم التفسير والحديث. كذلك قام بدراسة الفقه على مذهب "أبي حنيفة"، فقد صرح في ترجمته له بأنه كان يميل إليه ويعتق مذهبه. وإلى جانب العلوم الدينية فقد درس اللغتين الفارسية والعربية وأجادهما إجادة مكنته من أن يمسك بزمام اللغتين فينقل من إحداها إلى الأخرى في سهولة ويسر. وفي كتابه أيضاً الكثير من الأشعار والإشارات الأدبية

^١ - Murray Thmas: The Islamic Revival and Indonesian Education Asian Survey, vol. ٢٨, n. ٩, ١٩٨٨, p ٨٩٩.

الفارسية والعربية والتي استعملها في مواضعها الصحيحة، مما ينبئ عن فهم عميق وذوق أدبي سليم مدعم بدراسة واعية للأدب والاطلاع على الآثار الأدبية^١.

أما بالنسبة لمدة الدراسة، فكانت تستمر لسنوات، وفيما عدا السنوات الأربع لدراسة مقرر الفقه الأساسي في المرحلة الأولى، لم تكن هناك فترات زمنية محددة لأي حقل من حقول الدراسة، وكانت المدة اللازمة للحصول على إجازة التدريس تختلف اختلافاً كبيراً من طالب إلى آخر، كما لم تكن هناك فيما يبدو سنٌ معينة يبدأ فيها الطالب دراسته فيها بعد المرحلة الأولية في الكتاب^٢.

الألقاب والشهادات الأكاديمية

لم تختلف الألقاب والشهادات الأكاديمية في "غزة" عنها في غيرها من البلدان الإسلامية في ذلك العصر، وكان العلماء من الناحية الأكاديمية علي مراتب، وأعلى هذه المراتب الشيخ الذي يمثل مرتبة الأستاذية في أيامنا^٣، ويُطلق علي من يتولي أعلى منصب تعليمي، وبصفة عامة علي المدرسين في جميع الحقول العلمية علي أن يسند إليه لفظ آخر يعين المجال المقصود من المجالات الآتية: علوم القرآن، الحديث، النحو، ويدخل فيه الأدب والتصوف، وبالنسبة لشيخ الحديث فكان يطلق عليه أيضاً "شيخ الرواية".

"الرئيس" لقب يطلق علي العالم الذي يتم اختياره بصفته المقدم بين زملائه، وهو لقب ذو شأن كبير، واختيار الرئيس كان يتم بمعرفة المشايخ، ويشترك فيه علماء المدينة من جميع المذاهب، وليس فقط من أتباع مذهب المرشح لهذا اللقب. أما لقب "مدرس" إذا استعمل بدون إضافة فإنه يعني مدرس الفقه^٤. ولقب "الإمام" كان يطلق علي مؤسسي المذاهب

^١ - الهجویری: كشف المحجوب، ص ٥١، ٥٥، ٥٧، ٢٠٨.

^٢ - جورج المقدسی: نشأة الكليات، ص ١١٠، ١١١.

^٣ - عبد الله منسي العمری: تاريخ العلم عند العرب، ص ٢٧.

^٤ - جورج المقدسی: المرجع نفسه، ص ١٧٥، ٢٢١، ٢٣٤.

الفقهية^١، بينما احتفظ بألقاب "الحافظ" و"المحدث" و"المسند" للإشارة لعلماء الحديث^٢، في حين خصص لقب "الفقيه" لعالم الشريعة^٣. وامتاز علماء الإسلام بأن الواحد منهم كان يحمل أكثر من لقب كالشيخ الإمام الفقيه المحدث^٤، وذلك راجع إلى تعدد التخصصات العلمية التي برعوا فيها.

تعد الإجازة^٥ الشهادة الوحيدة المعترف بها، والتي عرفها التاريخ الإسلامي، إلا أنها لم تكن نتيجة اختبار أو امتحان، بل كانت شهادة شخصية يدلى بها معلم معين للتدليل على التحصيل الأكاديمي لطالب ما. والإجازة هي أن يميز الشيخ رواية أحد كتبه أو كتبه كلها لأحد تلامذته أو لمجموعة منهم. وأركان الإجازة: المجيز وهو الشيخ أو المؤلف أو من يروى كتبه، والمجاز له، وصيغة أو لفظ الإجازة^٦.

^١ - هشام نشابه: المدينة الإسلامية، ص ٨٧.

^٢ - القرشي: الجواهر المضيئة، ج ٣، ص ٤١١، ٤١٢. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٧، ص ١٧٣.

^٣ - ابن خلكان: وفیات الأعيان، ج ٣، ص ١٩٩. الذهبي: العبر، ج ٣، ص ١٢٧.

^٤ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٤، ص ٣٤٣.

^٥ - الإجازة لغة: مصدر أجاز، إعطاء الإذن، وأجاز له أى أذن له، والإجازة في الاصطلاح: إذن وتسويق، وهي اصطلاح اتخذها العلماء في مصطلح الحديث، وذلك أن يأذن من ثقة من الثقات لغيره بأن يروي عنه حديثاً أو كتاباً سواء كان ذلك الكتاب من تصنيفه أو كان يرويه عن شيوخه بالإسناد إلى مؤلفه. وكان مصطلح إجازة في أول الأمر للأذن برواية الحديث، وعندما يستعمل هذا الاصطلاح بدون إضافة فإنه يعني الحديث علي وجه الخصوص، أما فيما يتعلق بالدراسات الفقهية فقد بدأ استعماله بإضافة مضاف إليه لتمييزه عن الإجازة في الحديث، فكان الترخيص بإصدار الفتاوى الشرعية أو بتدريس الفقه يصاغ علي النحو التالي: الإجازة بالفتوى والتدريس، الإجازة بالتدريس والفتوى. (عبد الله فياض: الإجازات العلمية عند المسلمين، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٦٧م، ص ٢١. جورج المقدسى: نشأة الكليات، ص ١٦٧)

^٦ - ناصر محمد عبد الرحمن: الاتصال العلمي في التراث الإسلامي، ص ١٩٥.

يمنح الشيخ الإجازة لطلابه بطريقتين: الأولى الإجازة بالمشافهة، وثانيها الإجازة التحريرية، والإجازة الشفهية أقدم عهداً من الإجازة التحريرية^١، والإجازة التحريرية هي عبارة عن رخص خطية منحها شيوخ لمن أباحوا لهم الرواية عنهم بعد أن تأكد لديهم صلاح المجاز له لتحمل الحديث وروايته عنهم. واعتاد الشيوخ كتابة إجازاتهم على الكتاب الذى درسه عليهم المجاز، أو أباحوا له روايته دون أن يدرسه عليهم، وتكون الإجازات التي تكتب على ظهور الكتب مقتضبة عادة، ولا تحتوى أحياناً طرق الرواية، ولا أسماء الشيوخ الذين تلقى الشيخ المجيز معلوماته عنهم، ولعل ذلك يعود إلى قلة الفراغ، أما الإجازات المستقلة عن الكتاب فتكون عادة مفصلة فضلاً عن كونها مشتملة على طرق الرواية التي تلقى عنها للشيخ المجيز معلوماته التي أجاز روايتها لتلميذه^٢.

ويشترط لصحة الإجازة أن يكون المجيز عالماً بما يميزه به، ثقة في دينه وروايته معروفاً بالعلم، وأن يكون المجاز من أهل العلم حتى لا يوضع العلم إلا عند أهله، وأن يكون الفرع مشابه للأصل حتى يكاد يكون هو^٣.

إن تشدد العلماء وحرصهم على اتباع سلوك معين في الاستفادة من إنتاجهم الفكري، هو التأكيد من دقة وصحة المعلومات الواردة في هذا الإنتاج، والوثوق من عدم تطرق الخطأ إليها فضلاً عن نسبة هذه المعلومات إلى أصحابها، وهذا أمر طبيعي في عصر المخطوطات إذ كيف يمكن اعتبار أى نسخة من نسخ أى كتاب صحيحة ويعتمد عليها، إلا تلك النسخة التي يقرأها المؤلف نفسه، أو من صحت عنده هذه النسخة من أحد

١- ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ص ٢٨٦.

٢- عبد الله فياض: المرجع نفسه، ص ٢٣: ٢٧.

٣- أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٢٥١.

تلامذته، فمن غير المتوقع أن تتشابه جميع نسخ الكتاب الواحد في عصر المخطوطات كما هو الحال في عصر المطبوعات^١.

ارتبطت الإجازة بما يطلق عليه "طرق تحمل العلم"، والتي قسمتها كتب مصطلح الحديث إلى ضروب وهي:

١. المناولة، أرفع ضروب الإجازة، وهي أن يدفع الراوي إلى الطالب أصلاً من أصول كتبه أو فرعاً قد كتبه بيده ويقول: هذا الكتاب سماعى عن فلان وأنا أعلم بما فيه فحدث به عني، فإنه يجوز للطالب روايته عنه، وتحل تلك الإجازة محل السماع^٢ عند جماعة من أئمة الحديث^٣

٢. هو أن يكتب الراوي بخطه جزءاً من سماعه أو حديثاً، ويكتب معه إلى الطالب: إني قد أجزت لك روايته بعد أن صححته بأصلى

٣. هو أن يكتب الراوي إلى الطالب: قد أجزت لك جميع ما صح ويصح عندك من حديثي؛

٤. المراسلة: وهي شكل آخر من أشكال الإجازة يتم بالأسلوب التالى: يرسل الراوي أحاديث معينة أو أجزاء من كتب مخطوطة إلى شخص آخر ويسمح له بروايته^٤

^١ - ناصر محمد عبد الرحمن: المرجع نفسه، ص ٢٠١.

^٢ - السماع: هو اللفظ الاصطلاحي الذي يطلق على الشهادات التي تمنح بعد أن يتم الاتصال بين المدرس والطالب فيسمع هذا من ذاك، ويمنح سماعاً يبيح المدرس فيه للطالب أن يروي عنه ما رواه له. جورج المقدسى: نشأة الكليات، ص ١٦٠.

^٣ - عبد الله فياض: الإجازات العلمية عند المسلمين، ص ٣٣. أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٢٥١.

^٤ - الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الدراية، المكتبة العلمية، (د.ت)، ٣٤٥. أحمد شلبى: المرجع نفسه والصفحة.

^٥ - ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية، ص ٢٨٧.

٥. الوصية: وهى أن يوصي المعلم بكتبه إلى أحد تلاميذه أو أقاربه أو معارفه فتؤول إليه بعد وفاته

٦. الوجادة: وفيها يعثر الشخص على كتاب أو يشتريه من أحد الوراقين ويروى ما وجد فيه^١

وبناءً على ما سبق فإنه لا يجوز الرواية أو الاستشهاد بمعلومات أي نسخة من نسخ الكتاب إلا النسخة التي صحت معلوماتها عن طريق مؤلفها، أو ما رواها أو صححها وضبطها عليها سماعاً أو قراءة، أو إجازة منه بصحتها، أو أن يكتب له المؤلف نسخة من كتابة أو يأمر غيره بكتابتها، أو بعلمه إنها نسخة صحيحة أو يوصيه برواية نسخة معينة وإن لم يكن فبالوجادة على نحو ما سبق.

هناك بعض الإجازات التي منحت خلال فترة الدراسة ومنها الإجازة التي أعطاها الإمام "أبو الحسن علي بن محمد الدينوري" (ت ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م) محدث غزنة "لحنبل بن علي"^٢. والإجازة التي أعطاها الفقيه الواعظ "أحمشاذ بن عبد السلام الغزنوي" (ت ٥٥٢هـ / ١١٥٧م) لصاحب كتاب الخريدة "العماد أبو عبد الله محمد بن محمد الكاتب"، فقد أذن له في الرواية عنه^٣.

كان بوسع الدارس الذي يحصل على الإجازة من مدرس أو شيخ ما أن يحصل على إجازات أخرى من غيره من الأساتذة، وأن يفعل ذلك بالنسبة لنفس الكتاب، أو لتدريس الفقه، وفي هذه الحالة نجد الشخص الذى يحصل على هذه الإجازة يحصل على إجازات من مدرسين آخرين، وبذلك يجمع عدداً منها، وكلما زاد عددها كلما كان ذلك أفضل. ومن حصل على العديد من الإجازات "أبو الحسن علي بن عبد الواحد بن عبد الصمد

١ - ناصر محمد عبد الرحمن: الاتصال العلمي في التراث الإسلامي، ص ١٩٩.

٢ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ٣٦٩.

٣ - القرشى: الجواهر المضيئة، ج ١، ص ٣٥٩.

الغزنوي" (ت ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م) وقد حصل علي تلك الإجازات المتعددة من خلال رحلاته العلمية إلى العديد من البلاد الإسلامية "كقزوين" و"نيسابور"^١.

لم تكن الإجازات قاصرة على علوم الدين فقط بل شملت التاريخ والأدب واللغة والطب، وخطورة مهنة الطب إذ قد تزهق أرواح الناس بسبب جهل من يمتحن تلك المهنة، لذلك نجد أنه اشترط علي من يرغب في الاشتغال بهذه المهنة أن يجتاز امتحاناً وينال شهادة مكتوبة تحدد له الأمراض التي يمكن أن يتصدي لعلاجها^٢.

هيئة التدريس في المؤسسات التعليمية بمدينة "غزة"

يأتي الشيخ أو المدرس علي رأس المنظومة التعليمية، فهم الأساتذة المتبحرون في العلم^٣، كان اللفظ الذي يطلق على المدرس في تلك الفترة هو "الشيخ"، واللفظ الذي يطلق علي وظيفة التدريس هو "المشيخة". ويضاف إلي اللفظ اسم يعين مجال الدراسة المقصود، ففي مجال الحديث علي سبيل المثال كان المحدث عندما يوصف بأنه مدرس يقال له "شيخ حديث"، وتسمي وظيفته "مشيخة الحديث"، أما بالنسبة للفقهاء فكان يستعمل له لفظ مدرس أو شيخ بدون إضافة.

كانت مكانة المدرس في المجتمع رفيعة المنزلة، ومما يدل علي علو شأن المدرس ظهور تقليد "الدرس الافتتاحي" الذي يلقيه المدرس إبان تعيينه، ويحضره كبار المسؤولين في الدولة.

كان في مؤسسة الفقه سواء كانت مسجداً أو مدرسة. مدرس واحد عادة إلا إذا كانت المؤسسة تمثل أكثر من مذهب، فيعين فيها عندئذ مدرس لكل مذهب، كما كان المدرس

^١ - القزويني: التدوين في ذكر أهل العلم بقزوين، ج ٣، تحقيق عزيز الله العطاردى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧ م، ص ٤٢١.

^٢ - أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٢٥٢.

^٣ - ابن رشيقي المالكي: لباب المحصول في علم الأصول، ج ١، ص ٤٥.

^٤ - الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٤، ص ٣٤٣. جورج المقدسى: نشأة الكليات، ص ٢١٣.

يتولى أكثر من منصب تدريسي في أكثر من مدرسة، فيدرس في واحدة ويستخدم من ينوب عنه في التدريس في الأخريات التي عقدت مشيخة تدريسها باسمه، وكان اللفظ الاصطلاحي لمن يقوم بالتدريس نيابة عن المدرس هو "نائب المدرس"، وتسمي وظيفته "نيابة التدريس" والفعل المستخدم في هذه الحالة هو "استناب" بمعنى استخدم نائباً له^١. كما كان يستخدم لفظ خليفة مرادفاً للفظ نائب أي ناب عنه^٢. ويشترط في نائب المدرس أن تكون مؤهلاته لشغل الوظيفة معادلة لمؤهلات المدرس الذي يحل مكانه أو أفضل منه^٣.

ومن تولى نيابة التدريس في "غزة" "مسعود بن عبد العزيز الرازي" (ت ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م)^٤. و"أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم الفقيه" (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م) أصله من "غزة"، وهو من كبار أصحاب الإمام "برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي" الذي تفقه عليه وسمع منه الحديث، واستنابه "برهان الدين" في التدريس في مدرسة "بصرى"^٥.

أما أهم الأعمال والواجبات التي يختص بها المدرس فهي حسن إلقاء الدرس، وإيصال المعلومات للطلبة والتدرج معهم من السهل إلى الصعب^٦، وعليه أن يشفق على المتعلمين ويجريهم مجري بنيه، وعليه أن يهتم بأخلاق الطلاب اهتمامه بعقولهم، وأن يزرعهم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح بالزجر إلا عند الضرورة^٧، وعليه ألا يجعل في مجلسه مكان مميز لشخص معين بل كل من سبق لموضع فهو أولى به. هذا مع

^١ - جورج المقدسى: المرجع نفسه، ص ١٧٨، ٢١٢، ٢١٣.

^٢ - السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ٣٨٧.

^٣ - جورج المقدسى: المرجع نفسه، ص ٢١٢، ٢١٣.

^٤ - القرشي: الجواهر المضيئة، ج ٣، ص ٤٧٠.

^٥ - المصدر السابق، ج ١، ص ٦٦.

^٦ - السبكي: معيد النعم، ص ١٠٥، ١٠٦.

^٧ - الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٦٩: ٧١.

استثناء ما تدعو إليه الضرورة العلمية من جلوس العلماء والمعيدين في أماكن خاصة، ويجب عليه أيضًا ألا يميز بين أولاد الأغنياء والفقراء^١، فالتعليم حق للجميع، فلم يكن الفقر قط سببًا للحرمان من التعليم^٢.

ومن قام بالتدريس في غزة وليس منها العالم "أبو الفرج أحمد بن محمد بن الهيصم"، خرج من خراسان إلى غزة فدرس بها فترة من الزمن، ثم عاد إلى خراسان^٣. وقاضي القضاة "أبو محمد عبد الله بن الحسين الناصحي" (ت ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م) إمام المسلمين وشيخ الحنفية في عصره، استدعاه السلطان "محمود" للتدريس والإفتاء في غزة^٤.

كما درس "البیرونی" علی يد الأمير "منصور بن علی بن عراق" كتاب الأصول في الهندسة لإقليدس وكتاب المجسطی فی الفلك وكتاب المقالات الأربعة لبطلیموس، ودرس علیه الكتب التالية وجعل لها مختصرات وهی كتابه إلى أبی نصر فی السموات، وكتابہ فی تصحيح كتاب إبراهيم بن سنان الحراني فی تصحيح اختلاف الكواكب العلوية، ورسالته فی البرهان علی "عمل حبش فی مطالع السماوات فی زيجه"، ورسالته فی "تصحيح ما وقع لأبى جعفر الخازن فی السهو فی زيچ الصفائح" وغيره من الرسائل الأخرى. كذلك درس "البیرونی" علی يد أبى محمود الخجندی شرح الزيچ الصابى لأبى عبد الله البتاني^٥.

ويأتى بعد المدرس المعيد، وهو من الوظائف الهامة في المدارس في ذلك الوقت، فالتكرار هو الطريقة المفضلة لحفظ النصوص، ونجد كثيرًا من المفكرين والعلماء عندما يتذكرون أيام دراستهم يذكرون عدد المرات التي أعادوا فيها كل درس من دروسهم،

١- أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٢٤٤.

٢- أمين مدني: الثقافة الإسلامية وحواضرها، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠ م، ص ١١٤.

٣- الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٠، ص ٤٩٧. العبر، ج ٣، ص ١٢٧.

٤- ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٤٣.

٥- محمد عبد الحميد الحمد: حياة البيروني، ص ١٩.

ونستنتج من ذلك أن التكرار كان أساسياً في نظام التعليم إلى الحد الذي جعل المدرس يستعين بمعيد، والذي معناه الحرفي هو المكرر^١.

تحددت مكانة المعيد وعمله فهو دون الشيخ أو المدرس وأعظم درجة من عامة الطلبة، فهو طالب متقدم وزميل و"صاحب" مؤهل لمساعدة زملائه الأدنى منه في دروسهم، وعليه أن يعيد الدرس بعد إلقاء الشيخ له، فهو معين للشيخ علي نشر العلم^٢، حيث كان يجلس مع الطلاب لسماع الدرس وبانتهائه يبدأ عمله في تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة^٣.

ارتبطت وظيفة المعيد غالباً بالمدارس، والسبب في ذلك أن المدرسة جمعت طلاباً متفاوتت مقدرتهم العلمية، فظهرت الحاجة إلى وظيفة المعيد ليساعد المتخلفين حتي يتمكنوا من مساعدة الآخرين. أما في المساجد فكان الطالب إذا أحس تأخره العلمي عن طلاب الحلقة رغب عنها إلى سواها من الحلقات التي تناسب مستواه العلمي^٤.

ومن المعروف في ذلك الوقت أن المستوى العلمي كان مختلفاً للمدارس، لذلك كان من الممكن أن يختار معيد في مدرسة ليكون مدرساً في مدرسة أخرى لأن المدرسة الأولى أرقى من الثانية في مستواها العلمي، فلا تقل وظيفة المعيد فيها عن وظيفة المدرس في

^١ - ابن رشيق المالكي: لباب المحصول في علم الأصول، ج ١، ص ٤٥. ذبيح الله صفا: تاريخ سياسي واجتماعي وفرهنگي ایران، ص ٤٨. تاريخ تعليم وتربيت ایران از قرن هفتم تا قرن دهم، ص ١٥٨.

^٢ - الصاحب: هو الطالب الذي أتم دراسة المقرر الأساسي له سواء في المدرسة أو المسجد، وبدأ دراسته العليا بملازمة مدرس معين بصفة دائمة، ومن هنا جاءت الأفعال الدالة علي هذه الملازمة الدائمة وهي صاحب، صاحب أي لازم، وكلها تدل علي فكرة اتباع أستاذ أو ملازمته بشكل دائم دون سواه، مكرس نشاطه للدراسة تحت إشرافه. (القرشي: الجواهر المضيئة، ج ٣، ص ٤٣٠. جورج المقدسي: نشأة الكليات، ص ١٤٧).

^٣ - ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، ص ١٦٠.

^٤ - السبكي: معيد النعم، ص ١٠٨.

^٥ - أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٢٣٩.

الأخري، بل ربما شغل شخص واحد الوظيفتين معاً في وقت واحد. وفي أحياناً كثيرة كان المدرس يقبل أن يكون معيداً في مدرسة أخرى، إذا كانت الإعادة مع أستاذ ذى علم واسع وخبرة كبيرة يرجي من العمل تحت إشرافه مزيد من المعرفة والاستفادة^١.

ومن تولى وظيفة المعيد من أبناء "غزة" أحمد بن محمد بن محمود بن سعيد الغزنوي "الذي كان معيداً لدرس الإمام "الكاشاني" بمدينة "حلب"، وتوفي بها سنة (٥٩٣هـ / ١١٩٧م)^٢.

تلي وظيفة المعيد وظيفة المفيد، ويشار لها بإفادة، والمفيد يلجأ إليه الطلاب المبتدئون لكي يساعدهم في دروسهم. ويبدو أن وظيفة المفيد كانت مكملة لوظيفة المعيد، على هذا فإن المفيد من المرجح كونه طالب دراسات عليا يقوم بإجراء مزيد من الأبحاث أكثر مما يقوم به الطلاب العاديون، وبذلك فهو مرشح لتولي وظيفة المعيد، فهو يستخلص من أبحاثه معلومات مفيدة ينقلها على الطلاب الآخرين.

وعلى عكس وظيفتي النائب والمعيد اللتين تستلزمان ضمناً وجود وظيفة المدرس، فإن المفيد قد يكون أحد أعضاء هيئة التدريس في أحد معاهد العلم، أو قد يؤدي هذا العمل بعيداً عن الأنظار حيث يقصده العلماء الآخرون لحل بعض المسائل والمشكلات الصعبة التي تواجههم^٣. كان ذلك شأن الشيخ الإمام المحدث المفيد الرحالة "أبو مسلم الليثي" الذي سمع الحديث "بغزة"، وكان يلجأ إليه العلماء والمشاهير للاستفادة من علمه^٤.

يستخدم اصطلاح "مفيد" في حقول الفقه والحديث وعلوم القرآن، وكانت الإفادة وظيفة دائمة في معاهد العلم التي ورد نص بشأنها في كتاب الوقف، ومن الأمثلة على ذلك

١- المرجع السابق، ص ٢٤١.

٢- طاش كبرى زاده: طبقات الفقهاء، تعليق أحمد نيلة، ط ٢، الموصل، مطبعة الزهراء الحديثة، ١٩٦١م، ص ١٠٥. بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج ٦، ص ٣٢٩.

٣- جورج المقدسى: نشأة الكليات، ص ٢١٩.

٤- الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٨، ص ٤٠٧.

أن "أحمد الغزنوي" (ت ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م) عمل مفيداً في مادة الفقه للفقيه الحنفي "الكاساني" (ت ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م)^١. ومنهم أيضاً "أبو عبيد الله محمد بن آدم الغزنوي" (ت ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م) الذي رحل إلى "قزوين"، وأقام بالمدرسة العنبرية ليستفاد من علمه^٢.

والمصدر من أعضاء هيئة التدريس في ذلك الوقت، وهو شخص يقوم بإفادة الآخرين بعلمه ومساعدته لهم في اكتساب المعرفة^٣، وهو يطمح في ذات الوقت إلى تولي منصب التدريس رغم أنه قد لا يتاح له توليه مطلقاً، وقد يقضي بقية حياته متصدراً، وربما يحتفظ بهذه الوظيفة بعد أن يصبح مدرساً، وفي هذه الحالة فإنه يمارس ما يمكن أن نسميه بالإرشاد الطلابي بطريقة فردية بما يلائم حالة كل طالب وعلي مستوى عال.

ومن قام بوظيفة التصدير في "غزة" المقرئ المتصدر "محمد بن آدم الغزنوي"، قرأ علي عمر بن زكريا السرخسي، وروي عنه القراءة محمد بن عبد الرحمن بن أبي المعالي^٤. والمقرئ "منصور بن محمد بن العباس أبو نصر الهروي" نزيل "غزة"، كان شيخاً متصدراً، قرأ علي "أبي الحسن علي بن محمد الخيازي"، وقرأ عليه الأستاذ "أبو بكر محمد بن أحمد بن الهيثم الروذباري" نزيل "غزة"^٥. ومنهم أيضاً المقرئ المتصدر "عثمان بن علي الغزنوي الثعالبي"، قرأ علي "عبد الكافي"، وقرأ عليه "أبو حفص عمر بن زكريا بن السرخسي"^٦. وقد ترقى الأخير حتي صار متصدراً، وقرأ عليه "محمد بن آدم الغزنوي"^٧.

^١ - جورج المقدسي: نشأة الكليات، ص ٢١٩.

^٢ - القزويني: التدوين، ج ١، ص ١٣٠، ١٣١.

^٣ - ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٣، ص ١٨١، ١٨٢.

^٤ - ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢، القاهرة، مكتبة المتنبي، (د.ت)، ص ٤٣.

^٥ - المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٣.

^٦ - المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٨.

^٧ - المصدر السابق والجزء، ص ٥٩٢.

وخلاصة القول: أن المعيد والمفيد والمتصدر هم الذين يفيدون الطلاب، ومن المفترض أن ينتقلوا في نهاية الأمر إلى منصب أعلي وهو التدريس في أحد المجالات العلمية.

ومن يقوم بالمساعدة في التدريس المستملي، وهو اسم فاعل، معناه الحر في الشخص الذي يطلب من شخص آخر أن يدون الإملاء، وينبغي عدم الخلط بين هذه الوظيفة ووظيفة المعيد، فالمستملي مساعد لشيخ الحديث أما المعيد فكان مساعدا لمدرس الفقه، كان الأول يردد ما يمليه الشيخ كلمة بكلمة، وسطرا بسطر في نفس الوقت الذي يتحدث فيه الشيخ، أما الأخير فكان يعلم طلاب الفقه بعد انتهاء درس الفقه الذي يلقيه المدرس معيدا أو شارحا ما قاله المدرس. ومن الأمثلة عليه من علماء "غزة" "أبو القاسم علي بن أحمد بن الحسن الصيرفي الفارسي" (ت ٥١٥ هـ / ١١٢١ م) من أصحاب الحديث البارعين، الذي زار "غزة" فأسمع بها الحديث^١.

فالحديث عادةً ما كان يدرس بالإملاء، وكانت أعداد الحضور تصل إلى المئات في كثير من الأحيان، وفي مثل هذه الحالة لا بد من وجود عدد من المستمليين لتكرار الإملاء، لا يصالها إلى الصفوف البعيدة عن صوت الشيوخ. وقد يعمل المستملي مفيدا في الحديث، فكان لا يكفي بمجرد نقل أو تبليغ ما يمليه الشيخ من حديث بل يضيف إلى ذلك ملاحظاته وتعليقاته، وبذلك يقوم بدور المفيد في الحديث^٢. ومن أهم من قام بهذا الأمر من علماء "غزة" "أبو الفضل محمود بن أحمد ابن عبد الرحمن الغزنوي" (ت ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م) الذي دون كتاب "تفسير الفقهاء وتكذيب السفهاء" "لأبي الفتح عبد الصمد بن محمود بن يونس الغزنوي" وكان يحدث منه^٣.

١- النسفي: القند في ذكر علماء سمرقند، ص ٥٦٣.

٢- جورج المقدسي: المرجع نفسه، ص ٢٣٧.

٣- ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٣، ص ٤٣٠.

يتضح مما سبق أن المؤسسات التعليمية من الكتاتيب والمساجد والمدارس والمكتبات والمجالس العلمية كان لها دور عظيم في خلق نهضة ثقافية في مدينة "غزة"، وذلك بعد أن كانت هذه النهضة محصورة في حاضرة الخلافة "بغداد"، والتي اعتُبرت آنذاك مركزاً للعلوم والآداب. ويرجع ذلك إلى عاملين: أولهما التمسك بالمفاهيم الأساسية للدين الإسلامي. وثانيهما اتباعها لأساليب منهجية وتربوية لم تعد موجودة في الوقت الحالي ذلك كان سر تقدم المسلمين فيما مضى من أزمان.

الخلاصة أننا نجد في القرآن الكريم حشداً كبيراً من الآيات تحث الإنسان على التأمل والتدبر، وأن يتبصر بحقيقة وجوده وارتباطاته بالمخلوقات الأخرى وكيفية الاستفادة منها وتسخيرها في الكون بما يعود بالنفع على الإنسانية، علاوة على مدحه للعلماء وتفضيلهم على سائر البشر.

اهتمام الدولة الغزنوية بالعلم، حيث أنشأت المدارس والمكتبات وأرسلت الرسل إلى سائر البلدان في سبيل الحصول على الكتب، وجندت العلماء لترجمتها، وغير ذلك الكثير في سبيل النهوض بالحركة العلمية. كما كان العلماء في الدولة الإسلامية يجدون في حلهم وترحالهم كل عناية واهتمام من قبل الحكام في البلاد الإسلامية، فبالإضافة إلى المكانة الرفيعة التي كانوا يحظون بها عند السلاطين والأمراء، كانت الأموال تغدق عليهم وتيسر لهم جميع الوسائل في سبيل مواصلة أبحاثهم ودراساتهم.

كذلك هيأت لطلاب العلم جميع التسهيلات في سبيل مواصلة دراساتهم، بالإضافة إلى الأموال التي كانت تنفق عليهم، حتى يستطيعوا مواصلة دراساتهم دون أى صعوبة تواجههم، علاوة على الأوقاف الكبيرة التي كانت توقف على طلبة العلم.

كما انتشرت المكتبات التي كانت تحتوى على آلاف الكتب والمجلدات في شتى أنواع العلوم والمعارف في سائر البلدان الإسلامية، حيث اهتم السلاطين والأمراء غاية الاهتمام بالكتب، فأرسلوا الرسل وأنفقوا الأموال الطائلة في سبيل الحصول عليها، وعينوا عدداً ضخماً من الوراقين والنساخ وغيرهم في سبيل المحافظة على الكتب وترتيبها وتصنيفها.